الأمازيغ

قصّة شعب

عبد اللطيف هسوف




أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية



الأمازيغ

قصّة شعب

د. عبد اللطيف هسوف

الأمازيغ

قصّة شعب




أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

”حين يتعلق الأمر بالأمازيغ، يقال: نادراً ما كانوا حكاماً مستقلين يملكون مصيرهم بأيديهم، لكنهم كانوا دائماً ثائرين. كانوا في الغالب مغلوبين لا غالبين، لكن لم يتم، ولو لمرة واحدة، احتواؤهم تحت سلطة وحيدة، إنهم متفرقون منذ قرون يصعب تجميعهم... ورغم كل ما قيل، يبقى الأمازيغ دائماً متميزين بشكل لامع. وأضيف بخصوص المستقبل: حين يتعلق الأمر بالأمازيغ فمن باب الحكمة الاحتراز وعدم إصدار أي حكم نهائي.“

جان كلوزيل





أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

تقديم

يبدأ تاريخ البربر عصر دخولهم مصر واعتلاء الأمازيغي شيشنق وأبنائه العرش خلفاً للفراعنة (ابتداءً من ٩٤٥ ق.م). ومثلما تفاعل الأمازيغ مع المصريين القدامى، تفاعلوا كذلك مع الإغريق والفينيقيين والرومان والبيزنطيين الشرقيين، فأصبحت قرطاج بتونس نموذجاً للتفاعل بين الأمازيغ والفينيقيين، وقورونيا بليبيا نموذجاً للتفاعل بين الأمازيغ والإغريق القدامى، وشرشال بالجزائر ووليلي بالمغرب نموذجاً للتعايش بين الأمازيغ والرومان. وسيتمكن مسينيسا وحفيده يوغرتا من حكم أرض الليبيين بالوسط والشرق كملوك كبار. ثم ورث الأمازيغ النوميديون مدينة قرطاج الفينيقية بتونس وقورونيا الإغريقية بليبيا، ليعقب ذلك تفاعل الأمازيغ مع الرومان باعتلاء الأمازيغي سبتيموس سفيروس العرش بروما متبوعاً بابنه كركلا. ثم أصبحت موريتانيا (شمال المغرب وغرب الجزائر) كلها تحت حكم الأمازيغي جوبا الثاني الذي تلقى تربيته في روما، فكان تابعاً لها. وقد بنى هذا الملك العالم في شرشال قيصارية على هيئة المدن الرومانية حيث نصب التماثيل (تمثال أبولو الكبير وأثينا وزيوس وأفروديت وأغسطس). وكان جوبا الثاني يحسن قراءة اليونانية واللاتينية والبونيقية وله خزانة مهمة ألف كثيراً من كتبها (موسوعة لبيكا Libyca على سبيل المثال لا الحصر). ونظراً لتبعية جوبا الثاني لروما فقد ثارت عليه قبائل كدالة (أو جدالة) أواخر حكمه .وبعد وفاته خلفه ابنه بطليموس الذي أوعز كاليغولا الروماني باغتياله. ثم ألحق كاليغولا موريتانيا بمملكته ليقسمها كلوديوس بعد ذلك إلى مقاطعتين: موريتانيا الطنجية وموريتانيا القيصرية يفصلهما نهر ملوية. وبذلك أصبحت طنجة المغربية مدينة رومانية تخرج منها طريق إلى سلا مروراً بوليلي، أي من الميناء الشمالي إلى الميناء الجنوبي، وبقي الريف والجنوب غير خاضعين للنفوذ الروماني. كانت حينها موريتانيا الطنجية تحت حكم وكيل الإمبراطور وهو من الشخصيات الساهرة على النظام ويتمتع بسلطة واسعة للمحافظة على الأمن، وكانت تحت تصرفه قوة كبيرة من الجند وله نفوذ مطلق لا يخوض فيه إلا الإمبراطور نفسه. وكان من مهام هذا الوكيل جبي الضرائب والإشراف على المؤسسات والأشغال العامة والحكم بين الناس ومراقبة البلديات (السائح، ١٩٧١).

تميز الأمازيغ بقوتهم في الجيش الروماني، وحتى في أعلى دوائر الإمبراطورية حين شكلوا في فترة من الفترات ثلث أعضاء السينا بروما. وقد مثلت حينها قرطاج الرومانية إلى جانب شرشال

ووليلي أقوى المدن بعد روما العاصمة، وتكوّن في جامعاتها أعلام الأمازيغ وقوادها العسكريون، ما جعل هؤلاء يلعبون دوراً فعالاً في المؤسسات الدينية والسياسية والعسكرية للإمبراطورية الرومانية. على أن الحكم السائد حينها عند البربر كان للقبيلة، فكل قبيلة لها رئيس أو أمير حسب توسّعه الحربي ونفوذه القبلي.

هذا التوالي للحضارات على شمال أفريقيا قبل الفتح الإسلامي وهذا التعاقب لثقافات عدة شعوب يجعلنا نتساءل عمّا خلفه البربر من تراث فكري مكتوب. إننا نندهش حين نعلم أن البربر، الذين توفروا منذ قرون بعيدة على لغة لها خط يسمى التيفيناغ، لم يتركوا لنا إنتاجاً كتابياً يذكر في هذه اللغة. لم تسعفنا الفترات القديمة لما قبل الفتح الإسلامي سوى بكتابات أجنبية وتخطيطات ورسوم بالتيفيناغ على الجدران أو على الحجارة والأواني والزرابي. نفس الملاحظة نسجلها بعد دخول الإسلام خلال العصر الوسيط، إذ لم يتبقَّ لنا الآن سوى شذرات هنا وهناك من الموروث الأمازيغي مكتوبة في غالبيتها بالحرف العربي، وهذا الموروث لا يشمل إلا ما هو ديني وفقهي بالأساس. ولا ندري لماذا ينسى البربر دائماً لغتهم الأمازيغية وخطها التيفيناغ، لينتجوا بلغة المستوطن والوافد الجديد. لربما كتبوا بالبونيقة واليونانية، إلا أن الأكيد هو ما تركوه لنا، على قلته، من آثار رائعة باللغة اللاتينية الرومانية. هذا ما يؤكّد حقاً معرفة البربر بالثقافات الأجنبية وتمثلها، بل والإنتاج فيها إن لم نقل الإبداع داخلها. لكن بالمقابل حال اطّلاعهم على لغة الوافدين عليهم دون ظهور اللغة الأمازيغية على الساحة كلغة عالمة، وخط تفيناغ كوسيط للتعبير عن ثقافة سكان شمال أفريقيا. ولربما هناك تفسير واحد لهذا الأمر هو أن اللغة الأمازيغية كانت عبر العصور لغةً شفهية بالأساس. وحتى ما نراه حديثاً من محاولات مضنية لجعلها لغة كتابة لا يعطينا الدليل القاطع على أنها ستصبح يوماً ما كذلك. وعلى كل حال، ترتقي اللغة بالاستعمال وليس بالإكراه أو التعصب.

ولقائل أن يقول في هذه الحال: ما الذي يسمح بالحديث عن مفكرين وعلماء وأدباء وشعراء ورجال مسرح ورجال دين أمازيغ؟ ما الذي يسمح بالحديث عن أعلام البربر قبل الإسلام؟ يقول العلاّمة محمد شفيق بهذا الصدد: "كثيراً ما كُتب وقيل إن البربر لم ينشئوا قط ثقافة ذاتية يختصون بها. يعتبر هذا الحكم صائباً من له تصور تقليدي لمفهوم الثقافة، بحيث يجعله ينحصر في حيّز المآثر الأدبية المكتوبة، ويعتبره غير صائب من له تصور شمولي أنثروبولوجي عصري لمفهوم الثقافة، بحيث يرى أن التقاليد الاجتماعية والاختيارات والنزعات السياسية، والفنون بمختلف أنواعها، كالمعمار والرقص والغناء، والأدب الشفوي المروي جيلاً عن جيل، من شعر وقصص وأمثال سائرة، يرى أن ذلك كله ثقافة، بالإضافة إلى اللغة نفسها، بطبيعة الحال، وما تنفرد به من مميزات

معجمية وصرفية ونحوية واشتقاقية. والواقع أن للأمازيغيين ثقافة خاصة بهم توارثوها عبر العصور منذ آلاف السنين، يصعب على الباحث أن يتتبع مراحل تطورها فيما يخص الجوانب المعتمدة للكتابة، لكنه يستطيع أن يشخّص بسهولة كل الجوانب الأخرى." (شفيق، ١٩٨٩).

يزاوج كتابنا هذا بين التاريخ والحكاية والأسطورة. لقد ابتغينا له أن ينتهج منهاجاً مبسطاً يتمركز بين كتابة تاريخية موضوعية وكتابة أدبية إبداعية تستقي في بعض الأحيان من الخيال الشعبي المتوارث، ذلك أن المعين الذي اغترفنا منه يجمع بين التاريخ المعلوم والأسطورة المتداولة والحكاية التي تلامس أطياف الخيال، ولربما الحلم. يأتي هذا الكتاب كمزيج بين التاريخ والحكي الروائي والسيرة الغيرية والأسطورة والميثولوجيا ومعطيات الأنتروبولوجيا... وإن شئنا، فهو كتاب تاريخ لأننا اقتفينا فيه ما كُتب عن البربر منذ القرون الأولى لتواجدهم بأرض المغرب الكبير، كما استندنا إلى كتب عددٍ من المؤرخين الإغريق والرومان والعرب والأجانب المحدثين، من أمثال هيرودوت وبليني وابن خلدون ومحمد شفيق وباسيت وجوليان ومايكل بريت وإيليزابيت فونتريس وآخرين... هو كتاب حكايات لأننا أطلقنا العنان للخيال وألفنا دون أن نخرج عن ما يثبته التاريخ من أحداث؛ هو كتاب سير غيرية لأننا اعتمدنا في جزءٍ كبيرٍ منه ذكر أسماء رجالات البربر المعروفين وما صادفتهم من أحداث... هو كتاب أسطورة لأننا اعتمدنا كذلك على التاريخ الشعبي المروي الذي ينضح بالحقائق رغم تضخيمها أو تقزيمها في بعض الأحيان... هو كذلك كتاب أنتروبولوجيا لأنه يبحث في الأصول الإثنية والثقافية لشعب جذوره ضاربة في التاريخ القديم.

سنحاول إذن في هذا الكتاب تقصّي أخبار زعماء وأمراء الأمازيغ، ملوك وملكات الأمازيغ، أعلام وكتّاب المغرب الكبير خلال فترة ما قبل الفتح الإسلامي. لن ندخّر جهداً في استقصاء المعلومات عن البربر القدامى من خلال كل فقرة وكل سطر، بل كل تلميح كتبه من سبقونا للكشف عن سر هذا الشعب الحر والتعرف إلى هذا النبوغ الأمازيغي الذي أثار دهشة الكثير من الباحثين والكتاب؛ هذا السر الذي يظل يفاجئنا مع كل اكتشاف جديد يرتبط بالتاريخ المغاربي القديم. سنحاول في هذا الكتاب سبر أغوار المكنون في حياة شعب البربر قديماً. لن ندخل في نقاشات علمية وتقعرات أكاديمية نتركها لأصحاب العلم المكين في مجالات الأنتروبولوجيا وتاريخ اللغات وعلم التاريخ ودراسات المعتقدات المقارنة ودراسات الجينات... ذلك أن هدفنا الأساس هو تبليغ المعلومات بأسلوب مبسط للأجيال المعاصرة. وبالتالي، فإننا لا نزعم أننا نقدم للقارئ كتابَ تاريخ بالمعنى العلمي والأكاديمي، بل إننا نكتب تاريخاً مغاربياً لما قبل الفتح الإسلامي حسب قراءة مغايرة مبسّطة، وأساساً غير متعصبة. نقدّم كتاباً يختلط فيه التاريخ الذي كتبه الإغريق والرومان،

والتاريخ الذي كتبه العرب، والتاريخ الذي يسعى بعض المغاربيين المعاصرين إلى كتابته من جديد، والتاريخ الذي يكتبه الأجانب المحدثون من فرنسيين وإنكليز وأمريكان... لن نقصي أياً من هؤلاء، ذلك أن لكلٍّ منطلقاته ومبرراته، ثم تأتي مسحة شخصية منا تسعى إلى المزاوجة بين الموضوعية التاريخية والسرد الإبداعي دون استبعاد الأسطورة التي تعدّ بالنسبة لنا ملحَ ما احتواه هذا الكتاب، ذلك أننا نثق في كون الأساطير التي سجّلها التاريخ أو التي تناقلتها الذاكرة الشعبية لم تأتِ من فراغ؛ وأنها، أي الأسطورة، كفيلة بالإفصاح عن مكنونات زمنٍ بعيدٍ عنا لا يمكننا التحقق من صدق أحداثه ووقائعه بصورة مطلقة، لكننا في حاجة إلى استذكاره.

الفصل الأول

الأمازيغ – البربر

الأصول الأولى واختلاف التسميات

لا يمكن عزل مقاربة موضوع أصل البربر عن التموقعات الإيديولوجية والسياسية للأمازيغ أنفسهم وللمهتمين بالأمازيغيات عموماً. هناك اتجاهات متعددة عالجت، ومازالت، هذه الإشكالية دون التوصل إلى رأي علمي واحد وحيد يُعتدّ به. أسالت الأقلام مداداً وافراً حول هذا الموضوع، لكن ما يفتأ نفس النقاش يعود إلى الواجهة بعد أن عُطِّلَ لمدة قرون خلت كانت الهيمنة خلالها لكل ما هو عربي صرف. اليوم تُطرح الدراسات الأمازيغية بقوة في الساحة المغاربية بعد أن أجّج شعلتها المستعمر الأجنبي والمدافعون عن حقوق الأقليات في منظمات المجتمع الدولي، وإن كانت الأهداف من وراء هذا الاهتمام يختلف من مستعمر يسعى للتفرقة بين الأمازيغ والعرب ومغاربيين أمازيغ يسعون في أغلبيتهم لإثبات الذات والمطالبة بحق ديمقراطي متكافئ في المواطنة. أما مسألة مطالبة بعض الأصوات الأمازيغية بالانفصال فهي أصوات محدودة لا تستند إلى تبريرات موضوعية، فالأمازيغ كانوا دائماً وأبداً يعيشون مع الوافدين عليهم. لم يثبت يوماً أن طالب الأمازيغ هؤلاء بالرحيل إلا حين اغتصبوا وتجبّروا كما حدث ليوغرطا مع الرومان مثلاً، بل ينتهي التعايش دائماً باختلاط الدماء وامتزاج الثقافات واقتسام الأحلام.

عندما نتحدث عن أصل الأمازيغ يمكن أن نُذَكِّر بثلاثة اتجاهات أساسية:

١ – الاتجاه الأمازيغي أو المُتَمَزِّغ: يجتهد هذا الاتجاه لدحض فرضية الأصل العربي للأمازيغ أياً كان الثمن وبكل الوسائل.

٢– الاتجاه العروبي: لا يرى هذا الاتجاه الهوية الإثنية للسكان المغاربة الأولين إلا في المشرق العربي، أي فرضية الأصل العربي للأمازيغ.

٣ – الاتجاه المعتدل: يرى هذا الاتجاه أن معطى الهوية معطى متحرك وليس استاتيكياً. وبالتالي فإن المغرب اكتسب هويته عبر فترات تاريخية متتالية انصهرت خلالها ثقافات الشعوب الأصلية (الأمازيغية) والإفريقية الزنجية واليهودية والمتوسطية الفينيقية والرومانية والوندالية (الجرمانية)، ثم العربية الشرقية، والأوروبية حديثاً.

سنحاول بين دفات هذا الكتاب أن نسرد مبررات كل هذه الاتجاهات مركزين على أن شعب البربر وإن عرف اختلاطاً عبر العصور فإن أصالته لم تتبدد ولم تتلاشَ عبر القرون. بالفعل تأثر البربر بالوافدين عليهم في كل فترة من فترات التاريخ، إلا أن قوة هذه الإثنية استطاعت أن تمتص كل التأثيرات وتحافظ على هوية أمازيغية – أصبحت مغاربية اليوم – وقفت بكل حزم في وجه الهيمنة بجميع أشكالها.

١– أصل شعب البربر

يبقى إبراز الانتساب الأمازيغي للعرق العربي هو الرأي السائد عند معظم المؤرخين العرب، والسبب طبعاً قد يكون هو تبرير التواجد العربي بالمغرب الكبير خلال الفترات الأولى للفتح الإسلامي، وكذا إعطاء غطاء لهجرة عدد من القبائل العربية إليه، بل وإقامة حكم تابع للمشرق في أغلب الحالات. يقول القلقشندي بهذا الخصوص:

> اختُلف في نسبهم اختلافاً كثيراً، فذهبت طائفة من النسابين إلى أنهم من العرب ثم اختلف في ذلك فقيل أوزاع من اليمن، وقيل من غسان وغيرهم تفرقوا عند سيل العرم، وقيل خلفهم أبرهة ذو المنار أحد تبابعة اليمن حين غزا المغرب، وقيل من ولد لقمان بن حمير بن سبأ بعث سرية من بنيه إلى المغرب ليعمروه فنزلوا وتناسلوا فيه، وقيل من لخم وجذام كانوا نازلين بفلسطين من الشام إلى أن أخرجهم منها بعض ملوك فارس فلجأوا إلى مصر، فمنعهم ملوكها من نزولها فذهبوا إلى المغرب فنزلوه، وذهب قوم آخرون إلى أنهم من ولد نقشان بن إبراهيم الخليل عليه السلام. كما ذكر الحمداني أنهم من ولد بر بن قيذار بن إسماعيل عليه السلام، وأنه ارتكب ذنباً فقال له أبوه: البر البر، اذهب يا بر فما أنت ببر. قيل أيضاً إنهم من ولد بربر بن كسلاجيم بن حام بن نوح، وقيل من ولد ثميلا بن ماراب بن عمرو بن علماق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، وقيل من ولد قبط بن حام بن نوح، وقيل أخلاط من كنعان والعماليق، وقيل من حمير ومصر والقبط، وقيل من ولد جالوت ملك بني إسرائيل، وإنه لما قتله داود تفرقوا في البلاد، فلما غزا أفريقش المغرب نقلهم من سواحل الشام إلى المغرب. (أحمد بن علي القلقشندي بتصرف)

ويذهب البعض إلى أن البربر عنصرٌ بشري قد يكون قدم من شرق البحر الأبيض المتوسط خلال العصر البرونزي في حدود القرن الثامن قبل ميلاد المسيح، وينسبهم بعض مؤرخي العصر القديم إلى يافث بن نوح عليه السلام خرجوا من الهند إلى فارس، إلى القوقاز، فالشمال الأوربي بفينلاندا واسكندينافيا، ثم فرنسا وإسبانيا قبل أن يستقروا بشمال أفريقيا. كما أن هناك من يرى أن أصل سكان المغرب الأقدمين إنما يتأصل في أوروبا، إذ يمتّ بشكل أو بآخر بصلة إلى الجنس الوندالي الجرماني، الذي سبق له أن استعمر شمال أفريقيا. كما أطلق الباحثون العسكريون العنان للخيال

خلال المرحلة الاستعمارية لتبرير الأصول الأوروبية للبربر. وكان ذلك بهدف إضفاء الشرعية على الاستعمار الفرنسي على منطقة شمال أفريقيا. ويرتكز آخرون على الرأي القائل بوجود صلة بين الإسبان الباسك والبربر معتمدين على طروحات معجمية. ولم يتوقف الافتراض عند هذا الحد، بل اعتمدت بعض الأبحاث في إسبانيا على إبراز رصيد جيني مشترك بين البربر بالجزائر والبسكيين بإسبانيا. أما أصحاب النزعة الأمازيغية فيعتبرون أن الإنسان الأمازيغي لم يهاجر إلى شمال أفريقيا من أي منطقة كانت، وإنما كان فيها منذ بداية تاريخ الإنسانية. وقد يهدف هذا الطرح بدوره إلى القضاء نهائياً على كل دعوى إلحاقية للبربر بالوافدين إن من الشرق أو الشمال.

٢ـ دلالة تسمية الأمازيغ بالبربر

ما سبق كان عن أصلهم، أما عن دلالة تسميتهم بالبربر فهناك من يرجع كلمة "بربر" إلى النظرة الاستعلائية للإغريق حيث سمّوا كل ناطق بغير الإغريقية "بارباروس"، وهناك من يرجعه إلى الكلمة الرومانية اللاتينية "برابرة" كتعبير قدحي عن الشعوب التي توجد خارج الحضارة أو كتعبير يصم البربر بكونهم رُحّلاً لم يسبق أن جمعهم كيان سياسي لتشكيل دولة بالمفهوم القديم للدولة عند الإغريق أو الرومان. وتعني كلمة البربرة في اللغة، حسب رأي عبدالوهاب بنمنصور (مؤرّخ الملك الحسن الثاني)، الخليط في الكلام مع غضب ونفور! والخلاصة أن لفظة "باربار" تدل في جميع اللغات على الرطانة والجلبة والضوضاء، أو على الجهل والقسوة والهمجية!

وقد ذهب كثيرٌ من المؤرخين الأوروبيين إلى أن البربر كانوا دائماً يميلون إلى التمرد، وبالتالي إلى التخلص من كل من يسعى إلى إحكام قبضته عليهم وتنظيمهم، وقد نتج عن ذلك تتابع الثورات والفتن وعدم التفكير في بناء كيان حضاري متمدن واسع يشمل كل قبائل البربر، ما دفع إلى تسميتهم بالبربر. إلا أن العرباوي (١٩٩٥) يذهب إلى أن البربر، وهو اسم عربي قديم، لا علاقة له البتة بكلمة Varvaras اليونانية ولا كلمة Barbarus اللاتينية. وكلمة "البربر"، ذات الطابع البدوي الصحراوي، اكتسبت قيمتها التاريخية منذ مجيء العرب المسلمين حيث صارت منذ ذلك الزمن عَلَماً متميزاً يطلقه الناس جميعاً على سكان شمال أفريقيا، بعيداً تماماً عن معاني الاستنقاص الموجودة في اللغتين اليونانية واللاتينية.

وأيا كان المبرر، فإننا نعتبر من جهتنا أن كلمة بربر قد تطور معناها لتصبح اسم علم يشير إلى شعوب شمال أفريقيا بالبلاد الممتدة من المحيط الأطلسي إلى حدود مصر الغربية بصحراء سيوة،

ومن البحر الأبيض المتوسط إلى جنوب الصحراء الكبرى. لذا فإننا لا نرى غضاضة في استعمال كلمة بربر (Berbères/Berbers) للإشارة إلى سكان المغرب الأولين، بل نفضّل استعمالها في بعض الأحيان: أولاً لأنه الاسم المعروف في اللغات الأجنبية، وثانياً حتى لا ندخل في نقاشات جوفاء حول كلمتي "بربر" و"أمازيغ"، تاركين النقاش الحقيقي الذي نسعى إلى إبراز معالمه عبر القراءة المتأنية والمعمقة لتاريخ المغرب الكبير عامةً وتاريخ البربر خاصة.

إن الشعب الذي تواجد بأرضه منذ ما يزيد عن ٣٣ قرناً (شفيق، ١٩٨٩)، وحافظ على لغته وثقافته وعاداته أمام اكتساح فينيقي وإغريقي وفارسي ووندالي وروماني وبيزنطي وعربي وأوروبي، والشعب الذي انحدر منه ملوك وكتّاب ورجال دين عظام مثل مسينيسا وجوبا والقديس أوغسطين والمسرحي أفير والروائي أبوليوس، لا يمكن أن تُلْصَقَ به كلمة البرابرة (Barbares) ارتباطاً بمفهومها القدحي. ومهما يكن من أمر فإننا نعتبر الكلمة قد تطور مفهومها لتدل على شعب أصيل تميز بموضوعيته وواقعيته ونبوغه وتواضعه إلى جانب تمرده والدفاع عن حريته.

٣– تصنيفات شعب البربر

هناك من يقسّم المغرب الكبير إلى ثلاث ممالك مع حلول القرن الثالث قبل الميلاد: **الموريون** في المغرب الأقصى، **المازاسيلي** غرب الجزائر و**الماسيلي** على طول الشريط الممتد جنوب قسنطينة بالجزائر إلى شواطئ قابس بتونس ثم إلى طرابلس بليبيا. وتبقى التسميات التي عُرف بها البربر كثيرة ومتعددة، نذكر منها:

– **الأمازيغ:** يتكلم البربر تمازيغت، أي اللغة الأمازيغية. وتعني لفظة "أمازيغ": الرجل الحر النبيل. يقول العرباوي (١٩٩٥): "تؤكد المصادر من يونانية ولاتينية أنّ اسم أمازيغ قديم جدّاً، كان معروفاً في العهد الفينيقي". وقد ذكر الإدريسي مرسىً على المحيط الأطلسي ترد عليه مراكب الأندلس يسمّى "مرسى مازيغن" أو "مزاغان" (الإدريسي، المعروف بالشريف من علماء القرن الثاني عشر الميلادي).

– **التحنو**: المسجّل ظهورهم في الثلث الأخير من الألف الرابعة قبل الميلاد. ظل اسمهم يتردد في الوثائق المصرية حتى عهد رمسيس الثالث (١١٩٨–١١٦٦ق.م.). كانوا يتميزون ببشرتهم السمراء ويعيشون غرب مصر من ناحية الدلتا.

– **التمحو:** المسجل ظهورهم في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد (٢٤٣٤–٢٢٤٢ ق.م.). وهم من ذوي البشرة البيضاء والعيون الزرق والشعر الضارب إلى الزعرة، وكان لهم امتداد داخل الواحات الليبية.

– **الليبو:** أول ظهور لهم عُرف إلى حدّ الآن كان في عهد الملك رمسيس الثاني (١٢٩٨– ١٢٣٢ ق.م). ويشير الباحثون إلى أنهم كانوا منتشرين بمنطقة "برقة" بليبيا. وعندما آلت المنطقة إلى الإغريق أطلقوا هذا الاسم على كل شمال أفريقيا إلى الغرب من مصر. وقد استعمل أيضاً هذا الاسم المؤرخ هيرودوت الذي زار ليبيا، وذلك في بداية النصف الثاني من القرن الخامس ق.م.

– **المشواش:** ظهر اسمهم بشكل بارز في نصوص رمسيس الثالث (١١٩٨–١١٦٦ ق.م) الذي أحبط هجمة قوية في العام الحادي عشر بزعامة قبيلة "المشواش" الأمازيغية. ويشار إلى أن انتشارهم يمتد غرباً إلى الجنوب التونسي الحالي.

هذا التقسيم الذي سرده العرباوي (٢٠٠٥) لا يشمل إلا القبائل الأمازيغية التي وصلت إلى مصر، وتستثني بربر غرب شمال أفريقيا، ونذكرهم فيما يلي على التوالي:

– **الجيتول Gétules**: هي إحدى المجموعات الأمازيغية القديمة التى ذكرها المؤرخون الكلاسيكيون. وهى مجموعة من القبائل كانت منتشرة جنوب الممتلكات القرطاجية ومملكة نوميديا، وهى تمتد جنوباً حتى تحاذي أطراف الصحراء من الشمال. وإذا تتبعنا اسم هذه المجموعة السكانية فإننا نجد أن أول ذكر لها كان عن طريق المؤرخ اللاتيني سالوست (القرن الأول قبل الميلاد). ويبدو أن اسم الجيتول دخل عليه بعض التحريف عندما بدأ نقل هذا الاسم من اللغتين اليونانية واللاتينية إلى اللغة العربية، حيث كُتب مرة بصورة "جيتول"، وكُتب مرة أخرى بصورة عربية صرفة وهي "جُدَالَة"، ومنهم أهل جَزُولَة الحالية بالمغرب، حسب افتراض الباحث المغربي عبد العزيز بنعبدالله.

– **المور:** سُمّي أمازيغ الجزء الغربي بالمور، وهم السكان الذين سكنوا القسم الغربي الشمالي لأفريقيا من طنجة إلى نهر ملوية وجزء من الجزائر. ويفسّر البعض كلمة "مور" ككلمة سامية الأصل أصلها "هوريم" التي تعني الغربي أو الغربيين لدى الساميين، خاصةً الفنيقيين. أما البعض الآخر فيرجعها إلى أصل محلي ما يعني أصحاب الأرض. ويُعتقد أن الكلمات موريتانيا ومراكش وموروكو... أسماء اشتُقت من كلمة مور.

وكخلاصة يمكن أن نقول: لقد عُرف سكان المغرب الأولون في الفترات التاريخية المختلفة بأسماء عديدة أوردناها كالتالي: التمحو، التنحو، البربر، الأمازيغ، الليبيون، المشواش، النوميديون،

الجيتول، المور (...). وإن كان أصحاب النزعة الأمازيغية اليوم يفضّلون مناداتهم بالأمازيغ كاسم جامع لهم، فإن ذلك لا يعني أن الشعوب الأخرى كانت تعرفهم بهذه التسمية وحدها دون سواها، بل كانت هناك تسميات عديدة عبر التاريخ لا يجب تجاهلها.

٤ـ الأمازيغ: باللغة يكونون أم بالانتماء الإثني؟

"إمازيغن" أو "أمازيغ" هما الاسمان اللذان يسمّي به "البربر" أنفسهم. مؤنث "أمازيغ" هو "تامازيغت"، ويطلق على المرأة وعلى اللغة... ويذهب البعض اليوم إلى أن "البربري" أو "الأمازيغي" هو كل من يتكلم اللغة الأمازيغية. إنهم يعتبرون أن الأسس التي تسعفهم أكثر لتحديد إمازيغن هي اللغة، ويبررون ذلك بكون مجال الثقافة واسع لا يمكن ضبطه. ويخلص أصحاب هذا الرأي إلى أن تعريف البربر كشعب هو ذاك الشعب الذي يتكلم لغة مميزة تسمّى الأمازيغية، وإن اختلفت لهجاتها من منطقة إلى أخرى، فإن هناك رصيداً مشتركاً قد يصل إلى ستين في المائة إذا استثنينا طريقة النطق وتعويض حرف بحرف آخر من منطقة إلى أخرى.

وإن كان هذا التمييز والتصنيف اللغوي هو المعتمد اليوم عموماً للحديث عن البربر، إلا أننا نظن من جهتنا أن الإحساس بالانتماء إلى الكيان الأمازيغي هو أولاً إثني، ثم مجالي، ثم ثقافي واسع... وأخيراً لغوي محصور. ومن ثم فإن الانتماء الإثني يُدخل في خانة البربر الكثيرين من أصحاب اللسان العربي الذين عُرِّبوا على مَرّ القرون منذ دخول الإسلام وهيمنة اللغة العربية على بلاد البربر، وكذا الذين هاجر آباؤهم إلى الحواضر واضطروا إلى الحديث باللسان العربي الدارج، أو أبناء الذين تزوجوا عربيات وغلب اللسان العربي في بيوتهم، أو الذين صاحبوا الفاطميين إلى مصر ولبنان (قبيلة كتامة)، أو الذين هاجروا إلى الأندلس وبقوا فيها أو حُملوا جنوداً أو عبيداً إلى الكاريبي وكوبا وأميركا الشمالية والجنوبية، أو الغوانش بجزر الكناري، أو الذين هاجروا إلى أوروبا طلباً للرزق في العهود الحديثة... واللائحة تطول.

وإننا إذ نورد هذا الرأي هنا فلأننا لا نرى أي مبرر لغلق الحلقة واقتصارها على الذين يتكلمون اللغة الأمازيغية اليوم. إن تحديد البربر في المتكلمين بالأمازيغية يعدّ تجنّياً على شعب عريض قد نسعى إلى جعله أقلية بشرية في وطنه الأصلي. لذا يجدر بنا في الحقيقة أن نميز بين أمرين اثنين: البربر كشعب يمثّل أغلبية (Berbères\Berbers)، والناطقين باللغة الأمازيغية الذين أصبحوا يمثّلون أقلية كل دول المغرب الكبير (Berbèrophones\Amazighophones).

إلى هنا نكون قد أنهينا الحديث عن أصول شعب الأمازيغ واختلاف التسميات التي أُطلقت عليهم ودلالاتها. لا نزعم أننا أوفينا النقاش حقه، فالجدال حول أصل البربر سيظل حسب اعتقادنا مستمراً إلى الأبد، والمسألة ستُثار مرة بعد مرة سواء ظهر أو لم يظهر اكتشاف أركيولوجي أو بيولوجي جديد. إن مسألة أصل البربر هي أقرب في تصورنا إلى حدود الميثولوجيا منها إلى حدود التفسير العلمي البحث. ستؤلَّف الروايات وتُعاد صياغة الأساطير ويُستدلُّ بالكشوفات العلمية الرصينة، لكن سنعود دائماً إلى نقطة الصفر، لا لشيء سوى لأن هذا الشعب عاش في شريط حابل بهجرات شعوب أخرى اختلط بها وساكنها وتبنّى ثقافاتها، إن من الصحراء جنوباً أو من البحر المتوسط شمالاً أو من مصر شرقاً، ولربما من المحيط غرباً.

الفصل الثاني

توالي الحضارات على بلاد البربر

توالت على شمال أفريقيا عدة حضارات طبعت المنطقة بطابع التعدد الإثني والثقافي والديني. كان الاحتكاك الأول للبربر الليبيين مع الجيران الفراعنة المصريين في مصر، ثم مع الإغريق في قورونيا الليبية. بعد ذلك جاء الفينيقيون مهاجرين من لبنان واستقروا بتونس بعد أن أسسوا عاصمةً لهم بقرطاج، ثم انتشروا بعد ذلك في مجموع أراضي المغرب الكبير بمحاذاة الشواطئ يروّجون تجاراتهم ويقومون باستكشافاتهم. استمر التعايش بين الفينيقيين المسالمين والبربر المستضيفين إلى أن بدأ الصراع الروماني – القرطاجي. كان هذا الصراع تجارياً في البداية قبل أن يتخذ بعد ذلك أبعاداً عسكرية. وكان أول احتكاك بين الطرفين عندما احتل الرومان جزيرة صقلية (عام ٢٦٤ ق.م)، ما جعل القرطاجيين يعدّون هذا الغزو مساساً مباشراً بمصالحهم الاقتصادية والسياسية. ويمكن اعتبار هذا الاحتلال بداية لسلسلة من المواجهات بين الرومان والقرطاجيين استمرت من عام ٢٦٤ ق.م إلى عام ٢٤١ ق.م، وخلال هذه الحروب، التي سُمّيت بالحروب البونية، خاض الطرفان سلسلة من المعارك البرية والبحرية حُسم بعضها وبقي الآخر دون نتائج حاسمة، لكن الغلبة في الأخير رجحت كفة الرومان، خصوصاً ما تعلق بالمعارك البرية. استقر الرومان، بعد انتصارهم على الفينيقيين وهدمهم قرطاج، في شمال أفريقيا مكونين مقاطعات استعمارية على طول الشريط الساحلي المتوسطي. بعد ذلك سيدخل بلاد البربر الوندال الجرمانيون ليحكموا بالحديد والنار مدة قاربت القرن من الزمن قبل أن يخلفهم البيزنطيون المسيحيون القادمون من الشرق.

١– الفينيقيون في بلاد البربر

١–١– عليسة (ديدون) تؤسس قرطاج

الفينيقيون، وهم مثل العرب من بني كنعان، سُمّوا أيضاً بالقرطاجيين حين تقرطجوا، أي حين اختلطوا بالبربر بقرطاج، فتميزوا بذلك عن أجدادهم الذين ظلوا بالمدينة اللبنانية صور (Thyr)،

عاصمتهم في الشرق. الفينيقيون أسّسوا مدينة تير (صور في لبنان) في الألف الثالثة قبل الميلاد، وكانت عاصمة تشرف على القوافل التي تنقل إلى الغرب ما ينتجه الشرق الآسيوي عبر البحر. وقد سقطت مدينة صور تحت الحكم الروماني إبان حكم الإمبراطور سفيروس (١٤٦–٢١١م). وعندما وسّع الفينيقيون شبكة مستعمراتهم على سواحل المتوسط وأسسوا ليكس وأوتيك ومالقة وقادس (بالأندلس) وهيبو (عنابة وبنزرت)، أصبحت اللغة البونيقية (LanguePunique) لغة أشبه بعامية أفريقيا الشمالية. وقد اعتبر الرحالة المغربي الكبير الحسن بن محمد الوزان المعروف عند الغربيين بليون الأفريقي (Léon l'africain) أن الفينيقيين شكلوا عنصراً هاماً ضمن سكان أفريقيا الشمالية عام ١٢١٥ ق.م عندما أجلاهم الإسرائيليون عن فلسطين، ثم تتابعت الجاليات أيام نبي الله داود عليه السلام عام ١٠٥٥ ق.م (عبدالعزيز بنعبدالله).

يروي المؤرخ الروماني جوستينيوس قصة تأسيس قرطاج فيقول:

عيّن مطو ملك صور خليفةً له ابنه بيغماليون وهو لا يزال فتىً يافعاً، وابنته عليسة، وكانت غايةً في الحسن والجمال، تزوجها خالها عاشرباص، وهو كاهن هرقل، وكان رجلاً ثرياً عريض الجاه، تملّكه الجزع على أمواله الطائلة فغيّبها في أحشاء الأرض بعيداً عن مسكنه خوفاً من طمع بيغماليون وجشعه... طار نبأ الكنز المغيّب في جوف الأرض حتى اتصل بسمع الملك بيغماليون، فحرك رغبته لامتلاكه، فقتل عاشرباص الذي كان في الوقت نفسه خاله وزوج أخته. استشاطت عليسة زوجة القتيل غضباً من أخيها الذي أقدم على ارتكاب هذه الجريمة الشنيعة، غير أنها كتمت عواطفها وأقبلت على أخيها توهمه بأنها تريد أن تعيش معه في قصره، فقبل أخوها ذلك بكل السرور والابتهاج لأنه كان يظن أن كنوز عاشرباص ستدخل بيته مع قدوم أخته، وأرسل خدمه معها ليمدّوها بالعون في نقل متاعها... ولما أتى المساء، ركبت عليسة أمواج البحر وأمرت الخدم بأن يلقوا في اليم أكياساً كانت أعدتها من قبل وملأتها حجارةً ورملاً، وربطتها باعتناء ليتوهموا أنها تحتوي على الأموال التي ينتظرها أخوها. وبينما كانوا ينفذون أوامرها ويقذفون بالأكياس في قاع البحر، كانت هي توهم بالتوسّل إلى الإله أن يتقبل منها كهدية الموتى تلك الأموال التي كانت سبباً في قتل زوجها. ثم التفتت بعد ذلك إلى الخدم وقالت لهم إن بيغماليون سيسلّط عليهم العذاب الأليم لأنهم فرطوا في الأموال التي كان ينتظرها بلهفة شديدة، فارتعدت فرائصهم من الخوف لمّا سمعوا كلامها وطلبوا منها أن تسمح لهم بمرافقتها في هجرتها، فأبقتهم معها. ثم التحق بها جماعة الأعيان الذين كانوا على أهبة الاستعداد للسفر صحبتها لما لاقوه من بطش وتسلّط الملك بيغماليون. رست سفنهم أولاً بجزيرة قبرص وتلقّاهم كاهن تلك الجزيرة بكل الحفاوة، وسلّمت له عليسة جزءاً من أموالها، وكانت العادة بقبرص أن يرسلوا بناتهم في أوقات معينة إلى الشاطئ ليضحّين ببتولتهن للإلهة فينوس، ويقوم ذلك عندهن مقام المهر، وهذه العادة تعرف بـ"البغاء المقدس". أخذت عليسة منهن ثمانين بنتاً ما زلن عذارى، فضمنت بذلك قرينات للشبان الذين كانوا معها، وأعقاباً، وأنجالاً للمدينة التي ستؤسسها. ثم تقدمت عليسة إلى بلاد البربر، ووجدت بها أناساً غرباء يقبلون على التجارة مع شعبها بالمعاوضة. وتحكي الأسطورة أن استقرار القرطاجيين بشمال

أفريقيا كان بسبب ابتسامة مغرية لأميرة الفينيقيين عليسة (Elissa) الملقبة بـ"ديدون" (Didon) وجهتها لزعيم أمازيغي. وبالتالي، فإن الفينيقيين قدموا إلى شمال أفريقيا مسالمين لا غزاة، لدرجة أن الأميرة الجميلة سلبت العقول وتنازع الرغبة في الزواج منها عدد من زعماء البربر، من بينهم يارباس (Irbas) ويوباس (Iopas) (بتصرف عن المؤرخ الروماني جوستينيوس).

لم يهجم الفينيقيون على الأراضي الداخلية لهؤلاء الأفارقة، وإنما اقتنعوا بأن ينشئوا مستعمراتهم أو مستوطناتهم بمحاذاة ساحل البحر الأبيض المتوسط. وهكذا أنشأوا لهم قاعدة رئيسية في قرطاج بين الأعوام ٨٠٠ و٧٠٠ قبل الميلاد، واستمروا في بناء المستوطنات باتجاه الغرب، وأقاموا لهم مستودعات ومخازن ومراكز تجارية بمحاذاة الساحل عبر جبل طارق مروراً بالساحل الأطلسي المغربي، وامتدوا إلى ما يسمّى اليوم مدينة العرائش، ثم الصويرة (أو موكادور) بالمغرب. لم يكن الاستيطان الذي أسسه القرطاجيون كافياً لحمايتهم من أي هجوم عسكري قد يتعرضون له، لذا اعتمدوا على بناء علاقات أخوية وثيقة بالبربر، وأوجدوا لهم علاقات تجارية تربطهم وجيرانهم الجدد. كانت هذه العلاقات لمصلحة كلٍّ من القرطاجيين والأمازيغ على حدٍّ سواء. ولتقوية هذه الروابط تزاوج الفينيقيون مع البربر الذين قدّموا لهم شعارهم الديني الوثني، وجرت المقايضة بين الفينيقيين من جهة والسكان المحليين من جهة أخرى. وكان أكثر من نصف الجيش القرطاجي أمازيغياً، ومعظم كهنة قرطاج كانوا أمازيغ، وآلهة قرطاج كانوا أمازيغ أكثر منهم فينيقيين.

وبالمقابل، جلب الفينيقيون لهؤلاء البربر البضاعة المعدنية المشغولة يدوياً والزجاجيات والثياب الملونة المصبوغة من أطراف العالم المحيط بأطراف البحر الأبيض المتوسط، وقايضوا بضاعتهم هذه بالصوف والأحصنة وزيوت الزيتون والعاج الإفريقي، فضلاً عن العبيد، وريش النعام الذي مصدره تجارة الصحراء. كما قدّم القرطاجيون للأمازيغ أشجاراً جديدة لم يكن هؤلاء يعرفونها من قبل، كالتين والكروم والرمان، وعلّموهم كيفية غرسها والاعتناء بها. إلى جانب ذلك أتقن الفينيقيون بقرطاج صناعة الزجاج، وكانوا هم أول من صنعوه، واشتهروا أيضاً بصبغ الملابس باللون الأرجواني من مادة صدفية كانوا يجلبونها من جزيرة موكادور قرب مدينة الصويرة المغربية. ثم شرع الأمازيغ آنذاك يلبسون الأزياء الأرجوانية، والمجوهرات الثقيلة التي كان يستعملها القرطاجيون عادة. أما في الجانب الثقافي فمن المؤكد أن الأمازيغ تعلّموا اللغة البونيقية وأصبحوا يؤلّفون فيها انطلاقاً من القرن الثاني قبل الميلاد. وقد ألّف البونيقيون كتاباتهم حول شمال أفريقيا وسكانها الأمازيغ، وكذا حول السواحل القاصية التي وصلوها بسفنهم. وذُكر في كتب التاريخ القديمة اسم الكاتب ماغون القرطاجي الذي ألّف موسوعةً فلاحية تعد أوّل موسوعة فلاحيّة في

التاريخ، فضلاً عن رحلتي حانّون وخملك (عملقوا) اللتين اكتُشفت بفضلهما أفريقيا الغربيّة وإنكلترا وسواحل أوربا الغربية وجزرها، ومن يدري ربما وصلوا سواحل أميركا. وللأسف الشديد، لم يبقَ أيٌّ من هذه الكتب البونيقية إلا ترجمة يونانية لكتاب ماغون حول الزراعة. لكن يذكر الكاتب الروماني سالوست في كتابه **حرب يوغرطا** أن قرطاج كانت فيها كتب عديدة تاريخية وجغرافية، وأنها لم تُحرق حين تدمير قرطاج، بل استولى عليها الأمازيغ، وربما قرأ بعضاً منها ملك المور المفكّر العالِم جوبا الثاني.

بلغت الأمبراطورية القرطاجية أوجها في القرن الرابع قبل الميلاد إلى أن اصطدمت بالدولة الرومانية الصاعدة بسبب التنافس من أجل السيطرة على البحر المتوسط. اشتبكت الدولتان في الحروب البونيّة الثلاث التي برز في ثانيها غزو هنيبعل القرطاجي لإيطاليا. ويبدو أن قطع القرطاجيين لعلاقاتهم بوطنهم الأصلي – بعد أن غزا الآشوريون صور بلبنان لعدة سنوات قبل أن يقضي عليهم نهائياً اليوناني الإسكندر الأكبر – أعطاهم القوة لينشئوا إمبراطورية كبيرة هيمنت على جزءٍ كبير من البحر الأبيض المتوسط، وسببت قلقاً شديداً لا يستهان به لمنافسيهم الرومان.

١–٢– من يكون هنيبعل؟

هنيبعل من أعظم القادة العسكريين الذين عرفهم التاريخ. ولد هنيبعل بقرطاجة سنة ٢٤٦ قبل الميلاد. رافق، وهو في التاسعة من عمره، والده آميلكار في حملته على إسبانيا. وفي سنة ٢٢١ ق.م اختاره الجنود قائداً بعد اغتيال صهره صدربعل، فتمكّن من بسط نفوذ قرطاجة على معظم شبه الجزيرة الإيبيرية بما في ذلك إحدى المحميات الرومانية. وقد رأت روما في ذلك خرقاً للمعاهدة التي عُقدت إثر الحرب البونية الأولى وطالبت بتسليمها هنيبعل. وكان رفض هذا الطلب سبباً في اندلاع الحرب البونية الثانية بين سنتي ٢١٨ و٢٠١ ق.م.

بدأ هنيبعل زحفه على روما سنة ٢١٨ ق.م حين غادر مدينة قرطاجة متجهاً إلى إسبانيا بجيش قوامه ٤٠.٠٠٠ جندي، نقل خلالها ٣٧ فيلاً قتالياً. ثم عبر جبال البيرينيه وجبال الألب خلال ١٥ يوماً، واستطاع إلحاق هزائم كبيرة بالقوات الرومانية في عديدٍ من المعارك، لتتواصل سيطرته بعد ذلك على العديد من المقاطعات الرومانية حتى سنة ٢١١ ق.م حين حاصر روما عاصمة الإمبراطورية دون أن يستطيع اختراق تحصيناتها، بعد أن رفض حلفاؤه مدّه بالتعزيزات اللازمة. ثم قاد القائد الروماني سيبيو جيشاً قوامه ٢٥ ألف رجل من المشاة المدعّمين بالخيالة وقطع به البحر

الأبيض المتوسط متّجهاً إلى قرطاجة. وأصرّ القرطاجيون على استدعاء هنيبعل من إسبانيا لقيادة الجيوش القرطاجية. والتقى الجيشان في معركة "زاما" التي انهزم فيها القرطاجيون.

بعد الهزيمة بادر هنيبعل، بعد انتهاء الحرب، إلى العمل على تطوير قرطاج، فعدّل الدستور وقاوم الفساد وسعى إلى تعزيز موارد الدولة، إلا أن روما رأت في ذلك إعداداً لحرب أخرى فقامت بإبعاده، وهو ما تحقق لها، إذ لجأ القائد العظيم هنيبعل إلى ملك سوريا الذي كان بدوره يناصب العداء لروما. لكن هزيمة سوريا سنة ١٩٠ قبل الميلاد جعلت هنيبعل ينتقل نحو شمال بلاد الأناضول، وهناك وضع عبقريته في خدمة ملكها. إلا أن هذا الأخير رضخ لضغوطات روما التي لم تكفّ عن ملاحقة غريمها القديم وأرسلت في طلبه، وحين أيقن هنيبعل بحتمية وقوعه في الأسر آثر الانتحار مقدّماً آخر درس في رفض العظام للإهانة (باش شاوش، ٢٠٠٢).

١–٣– رحلة حانون ((Périple d'Hannon

أثناء حياة حانون المديدة وسفرياته العديدة، ومخالطته لأجناس وأقوام مختلفين، تكونت لديه فكرة عن طباع الناس ونمط تفكيرهم وطريقة تصرفهم، وكوّن صداقات مع أناس كثيرين في عدة بلدان، من الإسكندرية وقرطاج، وفينيقية وكورنثوس، وروما ومالطا، وليبية وليكسوس، وغيرها من سائر البلاد. لكن ما يهمنا هنا هي الرحلة التي يرجّح المؤرخون تاريخها في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد حوالي (٤٧٥–٤٥٠ ق.م). وتجعل هذه الرحلة من حانون القرطاجي أول مستكشف أجنبي للمغرب حيث أقام لفترة في مليلية Rusaddir وطنجة Tangis. وقد ترك لنا حانون نصاً منقوشاً على لوحة من النحاس كانت معلقة بمعبد كرونوس، أو "بعل حمون" كما يسمّى باللغة الفينيقية، يروي فيه رحلته بالتفصيل، بيد أنّ لم يبقَ من ذلك النص سوى ترجمة يونانية قام بها شيخ مؤرخي الإغريق هيرودوت، وهذا نصها:

١– رأى شعب قرطاج أن من المستحسن أن يسافر حانون خارج أعمدة هرقليس (ما يسمّى اليوم مضيق جبل طارق) وأن يؤسّس مدناً بربرية/بونيقية، فأبحر في ستين مركباً ذات خمسين مجذافاً، وأخذ معه جمّاً غفيراً من الرجال والنساء يبلغ عددهم ثلاثين ألفاً مع كل ما يلزم من المؤونة، وغير ذلك من الضروريات.

٢– بعدما اجتزنا أعمدة هيرقليس (Hercule) وسرنا في البحر مدة يومين، أنشأنا بلدة أولى سمّيناها ثيماتيريون Thymaterion تحتها سهلٌ كبير.

٣– ثم اتّجهنا نحو الغرب وأدركنا مكاناً يُعرف برأس صوليس Cap Soloeis، وهو عبارة عن رأس في أراضي البربر كله أشجار.

٤– بعدما أقمنا هناك معبداً للإله بوصيدون (إله أمازيغي تبنّاه القرطاجيون) سافرنا في البحر متّجهين نحو الشمس مدة نصف يوم فوصلنا إلى بحيرة قريبة من البحر يغطّيها قصبٌ كثيف مرتفع ترعى فيه الفيلة وعددٌ كبير من الحيوانات الأخرى.

٥– بعدما تجاوزنا تلك البحيرة وسرنا مدة يوم كامل شيّدنا مستعمرات سميناها: "الجدار القاري" Mur Carien و"جيطة" Gytte و"آكره" Acra و"مليتة" Mellita و"عرمبيس" Arambys.

٦– بعدما خرجنا من هناك وصلنا إلي نهر ليكسوس، وعلى ضفتيه رعاة من البدو الليكسيين يرعون أغنامهم، فمكثنا مدةً من الزمن صحبة هؤلاء الناس وصرنا من أصدقائهم.

٧– يعيش فوقهم أقوام... في أرض كلها حيوانات ضارية، تشقّها جبال كبيرة قيل إنه يخرج منها نهر لكسوس، ويقال إن رجالاً يدعون "التزغلوديت" يعيشون حول تلك الجبال، ويزعم الليكسيون أنهم أسرع من الخيل في العدو. إنهم أناس أشداء، يسابقون الظباء عدواً، ويصطادون الوحوش برماح لا تخطئ، ويصارعون الضواري والسباع بشجاعة منقطعة النظير.

٨– بعدما أخذنا معنا مترجمين من الليكسيين سرنا بجانب الصحراء متجهين نحو الجنوب مدة يومين ثم نحو الشمس مدة يوم كامل فوصلنا إلي الخليج حيث وجدنا جزيرة صغيرة فسميناها قرنة Ile Cerne وتركنا فيها جالية من المعمّرين...

هذا ما لخصه حانون عن رحلته الاستكشافية للمغرب ذي الساكنة الأمازيغية آنذاك.

١–٤– عالِم الفلاحة ماغون

تلا احتلال قرطاج وهدمها قرار رسمي من "السينا (مجلس الشيوخ في روما) ينصّ على وجوب ترجمة ونقل كتاب لعالِم الفلاحة الأوحد في العصور القديمة البونيقي ماغون. إن النص الفينيقي الأصلي مفقود، ولكننا نعلم بوجوده عن طريق اللغة اللاتينية التي نقل إليها، كما نقل هذا الكتاب إلي اليونانية أيضاً. وإن كانت لا توجد منه اليوم سوى شذرات متفرقة حول زراعة الكروم وبعض الثمار الأخرى، إلا أنه جاء في الأخبار أن مجلداته نُقلت كاملةً إلى اللغة اللاتينية. وقرار نقل الكتاب هذا الذي اتخذه مجلس الشيوخ بروما يدل على أن هذا الكتاب كان قد ذاع صيته في البحر المتوسط قبل ذاك التاريخ لدى الإغريق والرومان والبربر.

١–٥– المفكر صدربعل

هناك مفكر بونيقي آخر شاهد على ما وصلته قرطاج البونيقية من رفعة فكرية وهو صدربعل الذي ذهب إلى أثينا، وهناك منح نفسه اسماً إغريقياً عُرف به هو "كليتوماك". هذا الفيلسوف القرطاجني

كان رئيس الأكاديمية الجديدة في القرن الثاني قبل المسيح، وقد عاصر محنة تدمير قرطاج. وهذا دليل على أنه كان ثمة تعليمٌ فلسفي في قرطاج تأثّر به البربر المثقفون، وأن هذا التعليم الفلسفي كان له إشعاع كبير في منطقة المتوسط. ونعلم أيضاً أن هذا الفيلسوف كتب نص تعزية تخفيفاً لمصاب مواطنيه القدامى، وهو نص رثائي يتأسّى فيه على سقوط قرطاج.

٢ـ الإغريق في بلاد البربر

٢ـ١ـ معطيات تاريخية

الإغريق هم سكان جزيرة اليونان الحالية، وقد استوطنوا الأراضي الليبية على ساحل المتوسط بحثاً عن الرزق والأمان وطلباً للاستقرار والاطمئنان. أنشأ الإغريق مستعمراتهم في برقة لكونها وفيرة فى خيراتها وخصب أراضيها وغنى مراعيها بالماشية. وفي القرن السابع ق.م أسّسوا مدينة قورونيا (شحات). كما قام الإغريق بتأسيس مستعمرة إغريقية أخرى هي مدينة يوهسيبريديس (بنغازي) وعددٍ من الموانئ لتسهيل التجارة. أصبح أرسطوكليس أول ملك إغريقي لقورونيا، ثم تولّى ابنه أرسيلوس بعده، ثم باتوس الأول الذي شهدت فترة حكمه توسّعٌ في مملكته مما أخاف الأمازيغ المحليين الذين سرعان ما استنجدوا بالفراعنة في مصر لإنقاذهم. وقد استجاب الفراعنة لهم سنة ٥٧٠ ق.م، حيث أرسلوا نحو برقة جيشاً كبيراً، إلا أن الغلبة كانت للإغريق.

اهتم الإغريق بالزراعة والتجارة، ومع حلول القرن الخامس قبل الميلاد أصبحت قورونيا الليبية واحدة من أكبر عواصم عالم الإغريق تجارياً ومعماراً. وقد ساعد الفيلسوف أفلاطون بذاته في كتابة قانون البلاد بعد أن درس فيها مع فيلسوف قورونيا المشهور إيراتوشينس. كما عاش في قورونيا الرياضي المعروف تيودور، وكانت بها مدرسة للفلسفة ذات شأن. واستمر الإغريق في تعايشهم مع الأمازيغ بمنطقة برقة، واستمرت اليونانية هي لغة الشعب العالمة وحضارته حتى أواخر القرن الخامس الميلادي. يصعب استجلاء مجالات تأثير الإغريق على البربر، اللهم إذا استثنينا الديمقراطية كأساس للتسيير، فالنظام العرفي عند البربر يسلك مسلكاً ديمقراطياً هو الآخر مع وجود فارق طبعاً بين المدينة الإغريقية الديمقراطية والتجمّع القبلي الأمازيغي الديمقراطي.

٢ـ٢ـ مؤلفات الإغريق حول شعب البربر

من الناحية الثقافية، ترك الإغريق ترسانة من المؤلفات حول البربر ضاع أكثرها، لكن وجدت آثار لها في كتب التاريخ التي كُتبت فيما بعد. ومن الإغريق الذين اهتموا بالشأن الأمازيغي آنذاك نذكر:

– **هيرودوت** (شيخ المؤرخين) الذي ولد باليونان سنة ٤٨٤ ق.م. لقد ثبت أنه زار مدينة قورونيا بولاية برقة سنة ٤٥٥ ق.م، وكتب عن أهلها البربر ودرس عاداتهم وذكر ملابسهم وطعامهم وعادات دفنهم لموتاهم وأشياء دقيقة أخرى مثل الزغاريد والوشم والتخضيب بالحنّاء، إلخ.

– **هوميروس**: كاتب كبير وصف جزيرة جربة التونسية الأمازيغية في **الأوديسيه**.

– **بطليموس**: جغرافي يوناني آخر وصف قبائل أمازيغية بجنوب تونس.

– **هيقاطوس**: كتب مصنفاً في الجغرافيا تحدث فيه عن بلاد البربر في القرن ٦ ق.م.

– **سيلاكس**: بحار يوناني دوّن رحلاته خلال القرن الرابع قبل الميلاد واصفاً سواحل أفريقيا الشمالية وسواحل المغرب على المحيط الأطلسي.

– **ديدوروس الصقلي**: مؤرخ يوناني كتب عن بلاد البربر في القرن الأول قبل الميلاد خلال التواجد الروماني بالمنطقة.

– **إيراتوشينس**: جغرافي ورياضي وفلكي وفيلسوف ينتسب إلى مدرسة الإسكندرية اليونانية ولد بقورونيا بليبيا.

– **أوفيلاس القوريني**: ولد بمقدونيا، وهو أحد رفقاء الإسكندر الأكبر، وصف سواحل ليبيا وحكم برقة حين غزاها بطليموس ملك الإسكندرية سنة ٣٢٣ ق.م.

– **بوليس**: مؤرخ يوناني رافق شيبون الروماني في مهمة لدى الملك مسينيسا الأمازيغي ودوّن للحرب البونية التي جمعت الروم بالقرطاجيين.

– **أرتيميدوس**: أحد الجغرافيين اليونان، وصف بلاد البربر خلال القرن الأول ق.م.

– **بوريديونس**: يوناني ولد بسوريا سنة ١٣٥ ق.م. ترك كتابين مهمين، واحد عن المغرب تحت عنوان **أحوال المحيط**، والثاني حول حروب يوغرتا الملك الأمازيغي. كما ألّف كتاباً حول الحروب التي جمعت القائدين الرومانيين بومبيوس ويوليوس قيصر تحت عنوان **كتاب التاريخ من سنة ١٤٤ ق.م. إلى سنة ٧٨ ق.م.**

– **أسترابون**: وصف أفريقيا خلال القرن الأول قبل الميلاد.

– **قاليمنس القوريني**: شاعر يوناني تحدث خلال القرن الثالث عن شقراوات بلاد البربر وأشياء أخرى ترتبط بشعب الأمازيغ.

– **نيقولاس الدمشقي**: يوناني خلّف خلال القرن الثاني قبل الميلاد كتاباً بعنوان **ديوان الأخلاق العجيبة والعادات الغريبة** تعرّض فيه لسكان شمال أفريقيا.

٣– الرومان ببلاد البربر

٣–١– معطيات تاريخية

صُعق الرومان بالنجاحات السريعة التي حققها هنيبعل، جنرال القرطاجيين. لذلك، وفي القرن الثاني قبل الميلاد، زحفت الجيوش الرومانية، وشارفت على أبواب قرطاج، ولم تمضِ فترة من الزمن حتى سقطت المدينة واستسلمت لمهاجميها في العام ١٤٦ قبل الميلاد. حينها بدأ المستعمرون يأتون من الأجزاء الأخرى للإمبراطورية الرومانية ليستقروا بأرض البربر، ولم يكن معظم الوافدين من إيطاليا نفسها بل كانوا من الغاليين والإسبانيين والسوريين واليهود الذين أضافوا دماءهم وعاداتهم إلى الخليط الموجود قبلاً بشمال أفريقيا.

تمّ إذن خضوع منطقة شمال أفريقيا لنفوذ الرومان بقضائهم على بقايا القرطاجيين في المنطقة. وما أن استقروا حتى أنشأوا حصوناً تُعرف بـ"الليمس" كان دورها عسكرياً بالدرجة الأولى حيث تعتبر حصناً متقدما للقوة العسكرية، كما كان لها دور اقتصادي متمثّل في مراقبة الطرق التجارية ومراكز التبادل بين الرومان والقبائل الأمازيغية. وقد نتج عن نظام التخوم هذا (الليمس) أن الرومان منحوا جماعة من رجال الحرب إقطاعات يمتلكونها شرط قيامهم بالدفاع عن تلك التخوم، وصار من هؤلاء بعض الأفارقة الأمازيغ، وقد التزموا ذلك الشرط، فكانت تلك الإقطاعات معفاة من أداء الضرائب. وبذلك يكون الرومان قد عملوا على استمالة بعض القبائل الأمازيغية ومنحوها بعض الامتيازات كالإعفاء من الضرائب حتى تبقى وفيةً لهم، وسهّلوا على بعض الأمازيغ الآخرين الحصول على حق المواطنة الرومانية، ما جعلهم بذلك يستغلونهم لإخماد الثورات التي كانت تقوم بها قبائل أخرى غير موالية للرومان. وقد انتهت هذه الإستراتيجية بتمكّن الإمبراطورية الرومانية من بسط سيطرتها عند نهاية النصف الأول من القرن الأول الميلادي عبر هيمنتها على موريتانيا الطنجية والقيصرية ونوميديا وكل الممالك الأمازيغية بأفريقيا الشمالية.

تمتعت الأرستقراطية الرومانية في شمال أفريقيا بامتيازات كثيرة. وكانت طبقة الأرستقراطيين تتكون من كبار ملاك الأراضي الذين كانت المساحات الخاضعة لهم غير محدودة إلى درجة أن

عدداً قليلاً منهم كان يملك كل أراضي شمال أفريقيا يستغلونها بطريقة غير مباشرة بواسطة العبيد بينما تقتصر مهمتهم هم على المناصب العليا في الدولة والجيش ويعيشون في قصور داخل ضيعاتهم. وكان القنص يعدّ من أهم وسائل التسلية في حياتهم اليومية. وتميزت القصور التي كانوا يعيشون فيها بطلاءاتها المتنوعة الأشكال والألوان والفسيفساء مع وجود حاشية كبيرة تخدمهم وتخدم زوجاتهم. كما كانت الهدايا التي يتلقونها من صغار الفلاحيين الأمازيغ تعتبر مصدراً مكمّلاً لحياة الترف عندهم. وخلال فترة وجيزة نظّم الرومان أعمال ري واسعة، وبنوا القنوات لمدن متعددة كقرطاجة وقيصرية (شرشال)، وشرعوا بتعبيد الطرقات بأسلوبهم المميز، وهو استعمال البلاطات الضخمة (حسن السائح، ١٩٧١).

وفى سنة ٩٦ ق.م صار إقليم قرنيائية (برقة) تحت رعاية مجلس الشيوخ الذى ضمّها مع جزيرة كريت في ولاية رومانية واحدة حتى فصلها الإمبراطور قلديانوس في نهاية القرن الثالث الميلادي. سنة ٤٢م أسس سيوتونيوس بولينيوس (Suetonius Paulinus) مملكة موريتانيا الطنجية التي امتدت من طنجة العاصمة إلى سبتة شرقاً وإلى فاس والرباط جنوباً. وخلال هذه الفترة عرف المغرب انفتاحاً تجارياً مهماً على حوض البحر الأبيض المتوسط، وتطورت مدينة فولوبيليس (وليلي) في شمال المغرب بالتدريج حتى أصبحت عاصمة المنطقة الغربية لحين حلول القرن الرابع الميلادي قبل أن تؤدي فوضى الاضطرابات إلى اضطرار الإدارة الرومانية إلى سحب مراكزها القيادية والإدارية إلى حدود طنجة المدينة المغربية. بعد إحداث موريتانيا الطنجية غرب الملوية قامت روما بإعادة تهيئة لعدة مدن بالمغرب: تمودة، طنجة، تاموسيدة، زليل، بناصا، وليلي، شالة... كما قامت بإحداث عدة مراكز ذات أهداف عسكرية.

دفع حق المواطنة بالعديد من الأفارقة ليصبحوا قادة في الجيش الإمبراطوري الروماني حتى أصبح ما يقارب ثلث المجلس الذي يحكم الإمبراطورية في روما مشكّلاً من أعضاء أمازيغ. وقد تُوِّج كل ذلك بانتخاب أحد الأمازيغ، وهو المدعو سبتيميوس سفيروس، إمبراطوراً لروما في وقت مبكر من عام ١٩٣ ق.م. أما أولئك الأمازيغ الذين لم ينجحوا في مواكبة الركب الإمبراطوري فقد كانوا غير متحمسين للإمبراطورية الرومانية. وبما أن المسؤولين الإمبراطوريين كان همهم الأساسي السعي وراء تنسيق ما يختص بتنظيم الأراضي الزراعية وفرض الضرائب عليها، فقد اعترض عليهم عموم الشعب الأمازيغي. إذ مع استمرار تقدم زراعة الحنطة وتقلص المراعي خسرت القبائل الأمازيغية أراضي الكلأ التقليدية التي كانوا يستغلونها لرعي قطعانهم. وهنا انتقلت

هذه القبائل مع قطعانها إلى أراضٍ داخلية بعيدة ومرتفعة، وهي بالطبع أقل خصوبةً ويندر فيها الكلأ.

أدت النزعة الاستقلالية للقبائل الأمازيغية والكنيسة الأفريقية، خصوصاً الطبقات غير المواطنة داخل الإمبراطورية الرومانية عند نهاية سنة ٤٠م إلى حركة انفصالية واسعة تُوِّجت في أفريقيا بعودة العديد من القبائل إلى وضعها قبل التوسع الروماني بشمال أفريقيا. وخلال حكم ديوقليسيانوس ومكسيمليان كانت هناك ثورة خطيرة بشمال أفريقيا، ومع أن الرومان واجهوها بقوة وقضوا عليها فقد بقيت بواعثها ماثلة مما جعل مكسيمليان يأتي بنفسه إلى أفريقيا، فاخترق جميع أفريقيا من طنجة إلى قرطاجة وحلّ بتمودة (قرب تطوان)، وبذلك تم القضاء على ثورة المور وأقيمت بهذه المناسبة مراكز الدفاع وتأمين الطرق. وفي هذا العصر صارت أعداد كثيرة من أثرياء روما تلجأ إلى أفريقيا ويفضلون الإقامة بها لكثرة الفوضى والاضطرابات التي تعرضت لها بلادهم التي كانت تعتمد اعتماداً كلياً على أفريقيا الشمالية، اقتصادياً وعسكرياً، أوائل القرن الخامس، وكان الجيش الأفريقي (٢١٠٠٠ رجل) يعدّ أفضل جيوش الإمبراطورية الرومانية (محمد ابن تاويت، ١٩٦٩).

وقد عمل الرومان على تقسيم الحزام الساحلي إلى خمس مقاطعات، نذكرها تباعاً من الشرق إلى الغرب كالتالي:

– مقاطعة كورينيكيا بمحاذاة الساحل من مصر إلى ليبيا الحالية.

– مقاطعة أفريقيا البروقنصلية التي دعيت فيما بعد تريبوليتانيا، تطوق الساحل الذي يدعى الآن خليج سرت. كان هذا مقر الإدارة الرومانية في شمال أفريقيا والمتمركزة في عاصمتها قرطاج.

– مقاطعة نوميديا (جزء من ليبيا وجزء من الجزائر).

– مقاطعة موريتانيا قيصريانسيس (الجزائر حالياً).

– مقاطعة موريتانيا تنجيتانا (نسبةً إلى طنجة المدينة المغربية) التي تستمر نزولاً حتى الساحل الأطلسي إلى أن تصل إلى سلا المدينة المغربية.

فى القرن الرابع الميلادي قُسمت الدولة الرومانية إلى دولتين، الدولة الرومانية الشرقية (مقرها القسطنطينة) والدولة الرومانية الغربية (مقرها روما). وكانت تونس وغربها تابعة للإمبراطورية الرومانية الغربية، أما ليبيا فقد تبعت للإمبراطورية الرومانية الشرقية التي كانت تحت حكم الإمبراطور قسطنطين الأول الذى أصدر أمراً بالاعتراف بالمسيحية كدين رسمي للبلاد. ورغم ذلك ظلت بعض القبائل الأمازيغية في ليبيا على ديانتها الوثنية فترةً قاربت القرن ونصف القرن من الزمان. وقد دام مقام الرومان بالمغرب من سنة ١٤٦ ق.م. إلى سنة ٦٩٨م. تَرَوْمَنَتْ خلال هذه

الفترة البلاد ومؤسساتها وتعلّم البربر اللغة اللاتينية واعتنق جزءٌ منهم المسيحية بينما بقي الجزء الآخر يدين بالمجوسية أو الوثنية. مع بداية القرن الخامس الميلادي بدأ الرومان يغادرون كل مناطق المغرب. استرجعت شمال أفريقيا استقلالها عن النفوذ الروماني في شكل إمارات مستقلة لها أنظمتها الخاصة، لكن الونداليين وبعدهم البيزنطيون عادوا إلى إخضاع شمال أفريقيا لنفوذهم الخاص حتى سنة ٦٤٧م حيث بدأ الفتح الإسلامي لهذه المنطقة.

٣ــ٢ــ مؤلفات الرومان حول شعب البربر

في الجانب الثقافي ألّف عددٌ من كتاب الرومان كتباً بخصوص البربر، نذكر من بينهم:

– **سالسطيوس**: مؤرخ روما، ولد سنة ٨٦ ق.م. حكم ولاية بأفريقيا الرومانية ما بين ٤٦ ق.م. و٤٥ ق.م. أرّخ لفترتي مسينيسا ويوغرتا.

– **طيطس ليوس**: مؤرخ روما، ولد بإيطاليا سنة ٥٩ ق.م. وله كتاب **العشريات في تاريخ الرومان** ضمّنه أخباراً مستفيضة عن أخبار الملك الأمازيغي مسينيسا.

– **بومينيوس ميلا**: نشأ بإسبانيا، وضع تصنيفاً جغرافياً سنة ٤٤ ق.م. تحدث فيه عن شمال أفريقيا.

– **أفيلينوس**: كاتب ورياضي روماني ولد سنة ٢٣ من الميلاد. ألّف **التاريخ الطبيعي** الذي تحدث في بعض جوانبه عن شمال أفريقيا.

٤ــ الوندال في بلاد البربر

بعد انحسار الإمبراطورية الرومانية بشمال أفريقيا، غزا الوندال المغرب الكبير خلال بدايات القرن الخامس الميلادي. وفي هذا التاريخ استدعى الكونت بونيفس الوندال إلى أفريقيا لينصروه على خصمه سيجسقولط، فعبر جنسريك ملكهم، ولكن الكونت بونيفاس صار يقاوم الوندال لمّا أدرك أنهم جاؤوا فاتحين مقيمين لا فقط مناصرين (محمد ابن تاويت، ١٩٦٩). وقد قام الوندال الجرمانيون بالسيطرة على أراضي المغرب الكبير لفترة جاوزت مائة سنة. ويرجع أصل الوندال (Vandale) إلى الجرمانيين الذين يُطلق عليهم اسم الألمان في عصرنا الحالي، والغالب أنهم من أصول اسكندنافية وسلوفاك استقروا بشرق ألمانيا خلال القرنين الأول والثالث الميلاديين. وبعد أن احتلوا جزءاً من فرنسا تقدموا إلى إسبانيا واستقروا في جنوبها في إقليم الأندلس، وإليهم يُنسب هذا الإقليم

الذي كان يسمّى "فاندولوسيا". وفي سنة ٤٢٩م اجتاز الوندال جبل طارق ليدخلوا المغرب والجزائر ويستقروا بالقرب من عنابة سنة ٤٣٠م. وقد أجمع المؤرخون على وصفهم بالهمجيين والوحشيين. وقد اشتُقّت من لفظ الوندال كلمة الوندالية (Vandalism) بالإنكليزية و(Vandalisme) بالفرنسية، والكلمتان تعنيان نزعة التخريب والتدمير إرضاءً لشهوة من يعاني منها.

لمّا اقتربت جحافل الوندال من بوابات قرطاج أُصيب الناس في الداخل بفزعٍ شديد وهربت أعداد وافرة منهم إلى الجنوب، ولكن الوندال قتلوا من بقوا عن بكرة أبيهم وكان من بين الضحايا بامبنيانوس أسقف فيتا الذي قتله جند جنسريك بحراب متقدة بالنار. ثم قاموا أيضاً بإحراق مانسيويتوس أسقف أورستيا. وفي أثناء ذلك كان الكونت بونيفاس قد تلقّى بعض التعزيزات من رافنا وراح يعسكر وراء أسوار بلدة هيبو، وبات الموقف داخل هيبو حرجاً للغاية، فقد كانت البلدة غاصة باللاجئين، كما أنها كانت معزولة عن الاتصال البحري، وكان القديس أوغسطين يرقد داخل تلك المدينة التعسة وهو في حالة مرض شديد. ورغم وطأة المرض ظل الرجل يضرب المثل الطيب لمن كانوا من حوله في الصبر وقوة الإيمان. وكان أوغسطين يتمتم دوماً: "أنت العدل يا إلهي وحكمك هو عين الصواب". كان يتضرع إلى السماء كي تلهمه ورعيته جميل العزاء لكي يتحمّلوا البلاء القاسي. ولمّا دقّت ساعة الخلاص من أوزار هذا العالم صاح القديس على مسمع من تلاميذه: "اللهم أطلق عبدك بسلام". وتلقّف الجميع الصرخة وباتوا يتلونها من ورائه بصوت رجلٍ واحد. وفي الشهر الثالث من حصار الوندال لمدينة هيبو فاضت روح أوغسطين إلى بارئها، وكان ذلك في ٢٨ أغسطس سنة ٤٣٠ للميلاد. وقد دام الحصار ما يقرب عاماً كاملاً. ولمّا سقطت هيبو بيد الوندال كان نصيبها النار والدمار عن آخرها. هكذا، وبعد دفاع مستميت من قِبل الأمازيغ، انهزموا وسلّموا للوندال بعد أن توفي الكثيرون منهم. وقد استمر توسّع الوندال ليشمل تونس وقرطاج عاصمة روما الأفريقية سنة ٤٣٩م.

مكث ملك الوندال بقيادة جنسريك (Genseric) أكثر من ثلاثين سنة، ولمّا مات، سنة ٤٧٧ ميلادية، تولّى ابنه هينريك. وقد هربت أعداد كبيرة من السكان الأمازيغ إلى إسبانيا عن طريق البحر. وقد اضطُهد العديد من الذين بقوا بقسوة ووحشية، إذ تذكر المصادر القديمة أن السكان قُطّعت أياديهم اليمنى وألسنتهم! وفي سنة ٥٢٣م تولى على الوندال هلدريك الذي خُلع من منصبه وتولّى بعده جليمير، إلا أن هلدريك المخلوع استنجد بجوستنيان، قيصر القسطنطنية، لاسترجاع ملكه، وكانت هذه فرصة استغلها الرومان الشرقيون (البيزنطيون) للانتقام من الوندال وطردهم من

أفريقيا فهاجموهم سنة ٥٤٤ ميلادية وأزالوا دولتهم. ومن البطولات التي حققها الأمازيغ ضد الوندال، انتصار كاباون (Caboan) الأمازيغي الذي تزعّم جيشاً من راكبي الجمال البربر سنة ٥٢٣م وانتصر في معركة قوية على مجموعات من جيوش هؤلاء الوندال المخربين. لكن مع ذلك ظل الوندال على حالهم من التخريب إلى أن قضى عليهم البيزنطيون وشتتوهم في الأرض ونفوا رجالهم إلى آسيا واستباحوا نساءهم. والمعروف أن مجموعات منهم هاجرت إلى المغرب احتماءً بجباله من قوة البيزنطيين. وقد دام الحكم الوندالي في شمال أفريقيا من سنة ٤٢٩م إلى سنة ٥٣٤م.

٥- البيزنطيون في بلاد البربر

حوالي سنة ٥٤٥م، قتل الزعيم البيزنطي سليمان عدة أعيان من قبيلة لواتة، وهي بطن من بطون زناتة الأمازيغية التي كانت تسكن غرب ليبيا، وكان السبب في ذلك هو تقديمهم شكوى من تسلط الجيش عليهم وإساءته لهم. وتحكي المصادر أنه عندما جاء الزعيم البيزنطي سليمان ثمانون من أعيان لواتة يشتكون ما تعرضوا له من نهب محصولهم من قبل جيشه، لم يرَ من حلّ للمشكلة سوى أن أمر حراسه بقطع رؤوسهم. بعد ذلك بادرت قبيلة لواتة إلى شق عصا الطاعة، وقد تزعمت قبيلة لواتة الثورة الكبرى لسنتي ٥٤٥م و٥٤٦م حيث انتصرت على الحاكم البيزنطي وقتلته. وفي سنة ٥٤٨م انهزمت لواتة وقُتل ١٧ قائداً عسكرياً أمازيغياً. وكان هذا بمثابة فتح الباب أمام البيزنطيين للاستيطان بمجموع أراضي المغرب الكبير. وخلافاً للرومان (مسيحيو الغرب) الذين بنوا عدة مدن ببلاد الأمازيغ، لم ينهج البيزنطيون (مسيحيو الشرق) سياسة العمران تلك واكتفوا بنهب خيرات البلاد.

طوال القرنين والنصف التاليين شكلّت ليبيا وتونس والجزائر والمغرب جزءاً من شمال أفريقيا البيزنطية التي امتاز حكامها المحليون بنزوع واضح للاستقلال عن القسطنطينية. واستمر الوجود البيزنطي في شمال أفريقيا إلى سنة ٦٧٤ م حين دخل المسلمون البلاد لينشروا الإسلام انطلاقاً من مدينة القيروان. ويقول العلاّمة ابن خلدون: "ولما أطلّ المسلمون في عساكرهم على إفريقية للفتح، ظاهروا (أي البربر) جرجير في زحفه إليهم حتى قتله المسلمون". وجرجير هذا الذي ذكره ابن خلدون هو جريجوريوس حاكم أفريقيا البيزنطي، ويُعرف بالبطريق، أعلن انفصاله عن الإمبراطورية البيزنطية سنة ٦٤٦م، وتلقّب بالإمبراطور بموافقة الشعب الأمازيغي. كان مقره قرطاجة، وحين قدم المسلمون فاتحين، اتّخذ مدينة سبيطلة عاصمةً له لموقعها في جوف البلاد.

توجّه عبد الله بن سعد لحربه، والتقى الجيشان بالقرب من سبيطلة والتحموا في معركة ضارية قُتل فيها جرجير. ويروى في بعض الروايات التاريخية أن قاتله هو عبد الله بن الزبير الذي أسر ابنة جرجير، ثم اتّخذها أم ولد.

٦ـ مواقع أثرية ببلاد البربر

ـ قرطاج

تقع مدينة قَرْطَاج في بلاد تونس بالقرب من مدينة تونس الحاضرة. أسّسها الفينيقيون، وأصبحت مركز إمبراطورية كبيرة حكمت شواطئ المغرب الكبير وصقلية وإسبانيا حتى سقوطها في حروب مع الرومان. أصل كلمة قرطاج فينيقي: "قرت حدشت"، وتعني القرية الحديثة التي أُسِّست بعد مدينة أوتتك (Utique: أي العتيقة)، وهي مدينة صور التي انطلقت منها التوسعات الفينيقية في اتجاه غرب البحر المتوسط نحو سنة ٨٠٠ ق.م لتصل بعد ذلك قرطاج في تونس وموكادور في المغرب وإيرلندا في الشمال.

يقول باش شاوش:

قرطاج، التي أرادتها الآلهة "كعبة الشعوب" كما أنشد فرجيل، لم تعرف مدينةٌ في العالم القديم مصيراً أكثر تراجيديةً من مصيرها. هذه المدينة التي هُدمت مرات عديدة كما تنبأت بذلك الإلهة "غونو"، ثم عادت لتنهض من جديد من رمادها. لم تعرف مدينةٌ أخرى في تلك العصور السحيقة مجداً تجارياً فاق مجدها. لقد صارع القرطاجيون الإغريق تجارياً، وصارعوا الرومان تجارياً وعسكرياً للسيطرة على البحر المتوسط. لم يتم سقي مدينة في التاريخ بالدماء كما سُقيت أرض هذه المدينة في تلك العصور السحيقة... بدءاً من انتحار ملكتها ديدون وتهديم الرومان للمدينة في أشنع كارثة عرفتها العصور القديمة. لقد حرم الرومان دخول الرجال إلى قرطاج سنة ١٤٦ ق.م، ثم خربت مرة أخرى على يد الوندال، وبعد ذلك على يد العرب الفاتحين وأعراب بني هلال أثناء تغريبتهم المشهورة... كل صحائف ومدوّنات العالم القديم رثتها أو تشفّت فيها، من نصوص بوليبوس (Polybe) وهيرودوت، شيخ مؤرخي الإغريق، إلى أناشيد فرجيل في ملحمته **الإنياذة** (**The Aeneid**)، إلى نصوص القديس أوغسطين في كتابه المعروف **مدينة الرب**. وقد ظلّت قرطاجة مهجورة بعد أن خربها الرومان طوال قرنٍ ونصف إلى أن أعاد بناءها الأمبراطور أوغسطس الروماني في بداية القرن الأول الميلادي. (باش شاوش، ٢٠٠٢).

ـ قورونيا أو قورنية

أسّست قورونيا (شحات) بليبيا في حدود سنة ٦٣١ ق.م عن طريق بعض المغامرين الإغريق. تعتبر قورونيا من أكبر المدن الأثرية الواقعة في الجبل الأخضر بليبيا، وبها آثار كثيرة تعود لعهود مختلفة تجعلها من أشهر معالم الحضارة المتميزة بروعة الفن الإنساني الرفيع. ومن أهم آثارها الحمامات اليونانية ومعبد (زيوس) الفخم ومعبد أبولو وغيره من المعابد والأغورا (السوق اليونانية) ومجلس الشورى وقلعة الأكرابوليس. وبالقرب من المدينة تتواجد المقابر المنحوتة في الصخر والتي بني أغلبها على الطراز اليوناني تصميماً وهندسة. وعندما احتل الرومان الجبل الأخضر في القرن الأول قبل الميلاد أطلقوا على تلك المنطقة اسم ''لمدن الخمسة''لاحتوائها على خمسة مراكز عمرانية كبيرة.

ـ تيبازة أو تيباسا

أسس الفينيقيون تيباسا كإحدى مستعمراتهم التجارية العديدة حيث كانت لها مكانة مرموقة. ومعنى تيباسا في اللغة الفينيقية (الممر) لأنها كانت معبراً وممراً للناس بين مدينتي إيكوزيم (الجزائر) وإيول (شرشال). وعندما جاء الرومان حوّلوها إلى مستعمرة تتبع لاتيوم، ثم تحولت إلى مستعمرة تتبع روما في عهد الإمبراطور كلاوديوس (٤١–٥٤م). كانت لتيباسا مكانة تجارية معتبرة خصوصاً في عهد أباطرة القرنين الثاني والثالث الميلاديين. وفي القرن الثالث الميلادي كانت تيباسا من مقرات الأساقفة المسيحيين، وقامت القديسة سالسا برمي رأس تمثال أحد آلهة الأمازيغ في البحر، عندئذٍ قامت الجماهير الأمازيغية الوثنية الغاضبة برجمها بالحجارة حتى الموت، ثم رموها هي الأخرى في البحر. وبأعجوبة، كما تذكر الأسطورة، عاد جسدها من البحر ودُفن على التلة فوق الميناء في كنيسة صغيرة أصبحت لاحقاً البازيليكا الكبرى! في عام ٤٨٤م قام الملك الوندالي هينريك بإرسال أسقف من المذهب الأريوسي إلى تيباسا، عندئذٍ هربت أعداد كثيرة من سكان تيباسا إلى إسبانيا عن طريق البحر. وفي سنة ٥٣٤م جاء البيزنطيون واحتلوا شرشال وتيباسا أيضاً. وقد بنيت المدينة الرومانية في تيباسا فوق ثلاث تلال صغيرة متقابلة مطلّة على البحر. وكانت البيوت السكنية في التلة الوسطى، لكن لم تبقَ لها آثار. وهناك آثار باقية لثلاث كنائس هي: البازيليكا الكبرى وبازيليكا إسكندر في التلة الغربية وبازيليكا القديسة سالسا في التلة الشرقية. وتشير بعض الروايات إلى وجود تابوتين ملتصقين، كان يشتريهما الأغنياء لقبورهم الخاصة، حيث يكون قبرا الزوج والزوجة متلاصقين معاً، أملاً في أن تشاركه رحلة الموت أيضاً.

– شرشال

تقع مدينة شرشال المطلة على البحر الأبيض المتوسط بنحو ٩٠ كلم غرب مدينة الجزائر، وهي عاصمة ولاية تيبازا. كانت شرشال مدينة فينيقية تسمّى "إيول" وازدهرت في عهد القرطاجيين. ويعتقد الكثير من العلماء أن شرشال كانت مستعمرة مصرية في منتصف الألف الثاني ق.م (١٥٠٠ ق.م)، ربما قبل العهد الفينيقي، وذلك يعود لاكتشاف تمثال مصري في شرشال عليه خرطوشة "الفرعون تحتمس الأول" موجود في متحف المدينة، وهو تمثال منحوت من البازلت الأسود وجلسته جلسة الألوهية الفرعونية المصرية.

خضغت المدينة لحكم الفارس سيفاكس الأمازيغي، ثم ماسينيسا الأمازيغي، فأصبحت واحدة من مدن النوميديين. في عهد الملك جوبا الثاني أصبحت إيول (شرشال) عاصمةً لموريتانيا القيصرية، وتحول اسمها من إيول إلى قيصرية تكريماً للإمبراطور الروماني أغسطس قيصر، وقد جعل جوبا الثاني من عاصمته قيصرية مركزاً للثقافة اليونانية – الرومانية. في عهد الإمبراطور الروماني كاليغولا فقدت قيصرية استقلالها وأُلحقت بروما وكانت تسمّى "كولونيا كلاوديا سيزاريا". لكن قيصرية لم تفقد مركزها التجاري لأنها أصبحت عاصمة للولاية الرومانية الجديدة التي شملت ثلثي الشمال الجزائري. ثم أُلحق الدمار بشرشال على يد الوندال عام ٣٧٢م، بعد ذلك خضعت المدينة للبيزنطيين الذين أعادوا لها شيئاً من أهميتها السابقة. ولكن بعد الفترة البيزنطية رجعت شرشال العظيمة إلى الإندحار إلى أن اختفت كلياً.

– ليكسوس

تقع مدينة ليكسوس الأثرية على بعد ثلاثة كيلومترات ونصف شمال شرق مدينة العرائش المغربية، على الضفة اليمنى لوادي اللوكوس، فوق هضبة مطلة على الساحل الأطلسي على علو ٨٠ متراً. وتعتبر المصادر التاريخية المدينة إحدى أقدم المنشآت الفنيقية في غرب البحر الأبيض المتوسط، إذ يذكر بلنيوس الشيخ، الذي توفي سنة ٧٩م، بناء معبد أو مذبح هرقل المتواجد بجزيرة قريبة من مصب نهر اللوكوس، ويؤرّخ له بالقرن الثاني عشر قبل الميلاد. كما يوطّن المؤرخون القدامى في ليكسوس موقع قصر الإله الأمازيغي "أنتيوس" ومعركته ضد هرقل، وكذا "حديقة الهسبيريسات" ذات التفاح الذهبي التي كان يحرسها تنين رهيب – هو في نظر بلنيوس تمثيل رمزي لنهر

اللوكوس، بالإضافة إلى رأس صوليس (Cap Soloeis)، وهو عبارة عن رأس في أراضي البربر كله أشجار.

ابتداءً من القرن الثالث ق.م عرفت المدينة تطوراً معمارياً تمثل في بناء حي سكني يحدّه من الناحية الغربية سور ذو طابع هلينستي يؤرَّخ بالقرن الثاني ق.م، وحياة دينية يبرزها المعبد المتواجد على قمة الأكروبول. ومع بداية القرن الأول قبل الميلاد شُيدت في المدينة معامل لتمليح السمك وصناعة "الكاروم" (نقاعة لتحفيظ السمك حتى يتسنّى تصديره إلى قصور روما) التي تعتبر من أهم المنشآت الصناعية في غرب البحر الأبيض المتوسط وتدل على مكانة المدينة التجارية بالمنطقة. وقد أصبحت ليكسوس مستعمرة رومانية خلال حكم الإمبراطور الروماني كلود (٤٢–٤٣ ب.م). وعرفت خلال الفترة الرومانية عهداً جديداً تمثّل في إنشاء عدة بنايات، إذ أصبح الأكروبول مركز الحياة الدينية وشيّدت فيه عدة معابد ضخمة، كما تمّ بناء حمام عمومي ومسرح – مدرج يعتبر فريداً من نوعه بالشمال الأفريقي. وعلى إثر الأزمات التي عرفتها الإمبراطورية الرومانية مع نهاية القرن الثالث بعد الميلاد تمّ إنشاء سور حول الأكروبول والحي الصناعي ودخلت المدينة عهداً من الانحطاط.

– وليلي (Volubilis)

تقع مدينة وليلي الأثرية على بعد ثلاثة كيلومترات غرب مدينة زرهون المغربية. وقد ورد ذكر وليلي في عدة مصادر تاريخية، وكشفت الحفريات الأركيولوجية التي أقيمت بالموقع على عدة بنايات عمومية وخاصة. ومن الراجح أن الاستيطان فيها يرجع إلى القرن الثالث ق.م كما تدلّ على ذلك إحدى النقائش البونيقية. وخلال فترة حكم الملك جوبا الثاني وابنه بطليموس ما بين سنتي ٢٥ ق.م و٤٠م شهدت وليلي ازدهاراً كبيراً أهّلها لتصبح عاصمةً ثانوية لمقاطعة موريتانيا الطنجية. وبعد سنة ٤٠م عرفت وليلي خلال فترة حكم الأباطرة الرومان تطوراً كبيراً وحركية عمرانية مزدهرة، إذ كشفت الحفريات عن بنايات ضخمة وبقايا أثرية مختلفة كالأواني الفخارية والأمفورات والنقود ومجموعة مهمة من المنحوتات الرخامية والبرونزية، تشكّل جزءاً مهماً من معروضات المتحف الأثري بالرباط. ويضم موقع وليلي عدة بنايات عمومية شُيدت في أغلبها من المواد المستخرجة من محاجر جبل زرهون، نذكر منها معبد الكابيتول (سنة ٢١٧م) وقوس النصر والمحكمة والساحة العمومية. كما تضم المدينة عدة أحياء سكنية تتميز بمنازلها الواسعة المزينة

بلوحات الفسيفساء، نخصّ بالذكر منها الحي الشمالي الشرقي (منزل فينوس، منزل أعمال هرقل، قصر كورديان...) والحي الجنوبي (منزل أورفي). كما أبانت الحفريات الأثرية على آثار معاصر للزيتون ومطاحن للحبوب، وبقايا سور دفاعي شيد في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦٨–١٦٩م)، يمتد على مسافة تناهز ٢.٣٥ كم، تتخلله ثمانية أبواب وعدة أبراج للمراقبة.

بهذا نكون قد أوفينا موضوع الحضارات التي عرفها المغرب الكبير قبل مجيء الإسلام حقه. لقد حاولنا قدر المستطاع واستناداً إلى ما توفر لدينا من مراجع أن نحيط بالموضوع من جميع الجوانب لنخلص إلى أن تلك الحضارات العظيمة لا يمكنها أن تكون قد مرت مَرَّ الكرام من أرض البربر دون أن تنثر بذورها الطيبة وتترك بصماتها في عمق الكيان الأمازيغي.

سنتطرق فيما سيأتي إلى أوجه هذا التأثير المتبادل – السياسي والثقافي والديني – مسجلين مرونة هذا الشعب الأمازيغي الذي كان دائماً يقبل بالوافدين عليه، بل إنه ظل باستمرار يتقمص أدوار أصحاب الحضارة الوافدة يضيف إليها ويبدع فيها أيّما إبداع.

الفصل الثالث

معتقدات البربر

انتشرت الوثنية والمجوسية واليهودية والمسيحية ببلاد البربر قبل ظهور الإسلام. يقول ابن خلدون: ''وكان دينهم دين المجوسية شأن الأعاجم كلهم بالمشرق والمغرب، ثم دانوا بديانات من غلب عليهم من الأمم، فتهوّدوا وتنصّروا وأسلموا بعد ذلك''. كما أنهم قدّسوا الطبيعة في جميع تجلياتها، بالإضافة إلى الأجرام السماوية حيث نجد أنهم عبدوا الشمس والقمر وبعض النجوم. ومازالت حتى اليوم هذه المعتقدات، التي أُلبست لباساً دينياً إسلامياً، تظهر متجليةً في بعض الطقوس المرتبطة بالزراعة والاحتفالات كطلب المطر وإشعال النار في ليلة عاشوراء... (Basset, 1921).

١ـ الماجوسية

لا تعني المجوسية فقط عبادة النار، بل استخدمت الكلمة اليونانية Magos في البداية للإشارة إلى أفراد سبط ميديّ تولّوا المهام الكهنوتية في إمبراطورية مادي وفارس. وكان هؤلاء الكهنة ذوي قدرة على تفسير بعض العلامات والأحلام، وتضمّنت ممارساتهم السحر والشعوذة. لكن بالإضافة إلى هذه الاستخدامات السلبية، استُخدمت الكلمة أيضاً للإشارة إلى ''من يمتلك معرفة وحكمة فائقتين''. وهكذا عيّن الملك نبوخذنصّر دانيال اليهوديّ رئيساً للمجوس. ويشير المؤرخ يوسيفوس إلى يهودي اسمه سمعان، دعي مجوسياً، وكان مشيراً لفيلكس والي اليهودية المعروف (Maalouf, 2004). وإذا أخذنا الكلمة بمعنى ''من يملك معرفة فائقة'' فإنه كان بين الأمازيغ القدماء كثيرٌ من المجوس عُدّوا من الحكماء الكبار. وقد ظلت ظاهرة عبادة النار (''أفا'' عند الأمازيغ) مترسخة في المغرب الكبير مدةً طويلة. ومعلوم أن بعض الجبال لا تزال تُقام على قممها طقوس التعبّد باللهب. كما كانت تُقدَّم للنار قرابين من الحيوانات، ولعلنا نجد بقايا ذلك في الطقوس السحرية التي تتضمّن التبخر ببعض الحيوانات الصغيرة بعد رميها حيةً في لهيب المجامر، كالحرابي والعقارب والحلزونات وغيرها، والتي مازالت تمارس إلى اليوم، لكن بطريقة فردية متخفية بعد أن كانت في السابق جماعية وعلنية (واعراب، ٢٠٠٧). وفي بعض القبائل نجد الأمازيغ إلى وقت قريب يرمون

للنيران بعض الأسماك خلال احتفالات عاشوراء. والسائد في تفكير الناس أن الدخان المنبعث من جثث الحيوانات يطهّر من التأثيرات الشريرة وينقل البركة.

٢ـ تقديس الطبيعة

يعرف القمر باسم "أيور" في اللغة الأمازيغية، والاسم نفسه كان يشير الى الرب القمر لدى الأمازيغ. وعبادة القمر عموماً طقس ضارب في القدم. وقد سجّل المؤرخ اليوناني هيرودوت أن الأمازيغ القدماء على اختلافهم كانوا يقدّمون القرابين للشمس والقمر حيث قال: "إنهم يبدأون بقطع أذن الأضحية ويلقونها على منازلهم ثم يقتلونها بليّ عنقها. يتقربون إلى الشمس والقمر، ولكن ليس لأي إلهٍ آخر، وهي طقوس معروفة عند كل الليبيين". أما في القرن الأول قبل الميلاد فقد أشار شيشرون إلى تقديس الملك النوميدي ماسينيسا للشمس، حيث قال نقلاً عن سيبيو أفريكانوس: "حين قدمت إليه عانقني الشيخ – يقصد ماسينيسا – بعيون دامعة، ثم نظر إلى الشمس قائلاً: أشكرك أيتها الشمس العظيمة كما أشكرك أيتها الكائنات السماوية لاستقبال سيبيو في حياتي ومملكتي وقصري". إلى جانب الشمس والقمر عبد الأمازيغ الكهوف والجبال والوديان والحجارة. كانت الحجارة مقدسة في نظر العديد من الشعوب ما قبل التاريخية، ولربما اعتبروها بيوتاً للآلهة، وكانت هذه العبادة منتشرة بين الأمازيغ كذلك، وهو ما سجله بعض الكتاب اللاتينيين، بحيث أشار كلٌّ من صاحب رواية **الحمار الذهبي** وكذا القديس أوغسطين إلى أن الأمازيغ كانوا يقدّسون الحجارة.

٣ـ الديانات السماوية

٣ـ١ـ اليهودية

لقرون عديدة قبل وبعد الحقبة المسيحية كانت اليهودية ديناً تبشيرياً يسعى لكسب أتباعٍ جدد. وقد ذُكر هذا في الأدب اللاتيني الروماني: لقد سافر اليهود إلى أصقاع الأرض لكسب مريدين، في اليمن وشمال أفريقيا. وبعد قرون استطاعوا أن يُدخلوا شعوب جنوب روسيا اليهودية، وهؤلاء هم أصل الإشكنازيين (يهود وسط وشرق أوروبا). كما أن هناك اتفاقاً على تواجد اليهود في شمال أفريقيا منذ القدم، وقد يرجع استقرار اليهودية في المغرب إلى القرن العاشر قبل الميلاد، زمن حكم الملك سليمان الذي أرسل مجموعة من التجار للبحث عن الذهب في الصحراء جنوب المغرب الكبير.

وبعد أن تعرض هيكل سليمان للتخريب، من قبل ملك بابل، فرّ بعضهم للالتحاق بإخوانهم في الصحراء الأفريقية.

دخلت اليهودية إذن إلى بلاد البربر مع اليهود الذين هاجروا من الشرق بعد تشتيتهم في الأرض. كما وردت فئة أخرى من يهود شمال أفريقيا خلال الحقبات التاريخية الأولى التي ترجح وصولهم إلى بلاد البربر مع الامتداد الحضاري الفينيقي (Slouschz, 1909). وقد عاش اليهود وسط قبائل البربر وقراهم، وبنوا معابدهم بكل حرية واحترفوا الصناعات اليدوية والفضية وصناعة الأقمشة وبرعوا كذلك في التجارة. ويتبين من معطيات عديدة أن اليهود قد عاشوا في تسامح كبير مع القبائل الأمازيغية، مما يؤكد أيضاً أن بعض الأمازيغ دانوا باليهودية إلى حد أن العرب سمّوا دهيا العرافة التي وقفت في وجه حسان بن النعمان وجيوشه المسلمة الفاتحة "ديبورا" (اسم يهودي معروف) أو "كهينا" (نسبةً إلى العرافة أو الكوهن، وهو كذلك اسم يهودي). وتعدّ ثورة اليهود في برقة بليبيا سنة ١١٥ للميلاد التي جاوز عدد ضحاياها الآلاف من السكان دليلاً على انتشار اليهودية وكثرة اليهود في بلاد الأمازيغ خلال العصر الروماني.

انتشر إذن الدين اليهودي بين قبائل البربر قديماً بحيث تعددت القبائل التي اعتنقت الديانة اليهودية. وفي المغرب، مثلاً، توزّع أحفاد اليهود الأمازيغ بين الأطلس المتوسط وسوس والصحراء وبعض مناطق الريف، وكانت الأمازيغية لغتهم الرئيسية. وقد أنشأ اليهود، منذ وصولهم إلى المغرب، مدينةً سمّوها القدس الصغيرة، وهي على شاكلة المدينة المفقودة. وهذه المدينة قد تكون هي إفرن جبال الأطلس الصغير، أو منطقة أخرى بوادي درعة. وبعد صراعات متتالية مع سكان المنطقة حول هذا الوادي استطاع اليهود الاستيلاء على الأرض فتمت السيطرة على درعة الشرقية، وذلك حوالي القرن الخامس قبل الميلاد، وأنشأوا فيها مملكةً قوية، واعتمدوا في اقتصادهم على استغلال المناجم لتتصدّر بذلك هذه المملكة مكانةً مهمة في الاقتصاد المغربي القديم. ومما تذكره كتب التاريخ أن عدداً من أنبياء اليهودية دُفنوا في المغرب. وسبب دخول هؤلاء الأنبياء المغرب هو أن أحد الملوك في الشرق كان يقتل الأنبياء، وفرّ هؤلاء بأنفسهم وركبوا البحر إلى أن وصلوا رباط ماسة، ثم خرجوا منها وتوجهوا إلى ناحية القبلة. وبالإضافة إلى المغرب، تواجد اليهود بتونس، وبقيت آثارهم إلى اليوم في جزيرة جربة. كما تواجدوا بالجزائر وليبيا وعايشوا البربر لقرون مديدة.

٣ـ٢ـ المسيحية

دخلت المسيحية إلى شمال أفريقيا عن طريق مصر وروما خلال القرن الثاني الميلادي واعتنقها عددٌ كثير من السكان البربر. ويظهر من الأخبار أن هذا الدين وصل إلى قورونيا، المدينة الليبية، منذ عهد المسيح، وكان سمعان القوريني الذي حمل الصليب عن المسيح أحد أبناء برقة اليهود، أي أمازيغي يهودي. ويُنسب مرقس صاحب الإنجيل إلى برقة، وقد أقام بالبلاد فيما بين سنتي ٤٠ و٦١ للميلاد يبشّر بالدين الجديد، وهو من أسّس أول كنيسة ببرقة قبل أن ينشئ كنيسة الإسكندرية. كما دافع الأمازيغ عن المسيحية في محنتها من أمثال ترتليان وأرنوبيوس، وبرز الأمازيغي القديس أوغسطين كأحد أعظم آباء الكنيسة الأفريقية (مذهب الدوناتية). وبذلك أخذ البربر بواحدٍ من المذاهب المسيحية التي لم تقبل بها الإمبراطورية الرومانية، واتّخذوا من هذا الاختلاف المذهبي سبيلاً للثورة والعصيان على الدولة الرومانية المستعمرة ومطالبتها بالحقوق الأمازيغية ورفض الرضوخ لسيطرة القياصرة الذين ركبوا الكاثوليكية لتحقيق توسّعهم وإخضاعهم للشعوب (Mesnage, 1902).

انتشرت إذن الدونتية ببلاد البربر بشمال أفريقيا، وهو مذهب أفريقي منسوب إلى دوناتس. وقد ساد هذا المذهب بعد اضطهاد ديوقليسيانوس للمسيحية مباشرةً، حتى أضحى نصف شمال أفريقيا تقريباً يعتنقه، وكان له أثره الملحوظ في رجال القانون والأساقفة المشهورين والمزارعين. وإجمالاً كان للدوناتية أثرٌ قوي في الأوساط الاجتماعية المضطهدة سجّله لها التاريخ ضد الكنيسة الكاثوليكية التي كانت مظهراً من مظاهر الإمبريالية، فأصبحت الكنيسة الدوناتية كنيسة الشهداء، ومثّل أصحابها دور الاستشهاد في المسيحية كخوارج في نظر الأباطرة المسيحيين. وأقدم شهيد مسيحي معروف بمملكة موريتانيا الطنجية هو مارسيل (centurion) الذي قُتل سنة ٢٩٨م في تنجي (طنجة). وكان النظام الروماني ضد الدوناتيين، فأصدر القوانين في حقهم فحوكموا بها وسُجنوا وانتزعت منهم كنائسهم، وتشتت شملهم، فلم يكن لهم استقرار في مكان أوائل القرن الخامس الميلادي. وزاد في اندحارهم اشتداد وتطرف رجال مذهبهم (القسس الدوناتيين) في عقاب المذنبين الذين كان معظمهم شباناً يُجرَّمون في سكرهم، ما أثار عليهم الرأي العام وسخط الشعب، فقاوموهم أشد المقاومة (ابن تاويت، ١٩٦٩).

٣ـ٣ـ فقهاء المسيحية ببلاد البربر

– **ماركس منكوكيوس فيلكس:** أفريقي درس القانون ومارس المحاماة في روما ونبغ فيها. كان رواقياً قبل الإيمان المسيحي. وضع حواراً على لسان صديقه أوكتافيوس الذي كان قد أدخل كايكيليوس Caecilius إلى الإيمان. قدّم في هذا الحوار اعتراضات كايكيليوس على المسيحية وردّ أوكتافيوس على اعتراضاته. وإذ يكتب إلى الوثنيين الأمازيغ، لم يعتمد في حواره علي الكتاب المقدس بل على بعض الفلاسفة مثل شيشرون في رسالته عن الطبيعة الإلهية وأخرى في الألوهية وعلى مقالتي سينيكا في العناية والخرافة. وقد جاء حواره منسقاً فخم الأسلوب، اقتبسه أرنوبيوس في ردّه على الوثنيين الأمازيغ في كتابه الثامن.

– **القديس ترتوليان Quintus Septimius Florens Tertullien:** ولد ترتوليان ما بين عامي ١٥٠ و١٥٥م بقرطاج وتلقى فيها تكويناً أدبياً وقانونياً. كما أنه ذهب إلى روما حيث درس الحقوق وعمل بالمحاماة وتزوج بعد ذلك. وما بين سنتي ١٩٠ و١٩٥ الميلاديتين اعتنق المسيحية، ثم عاد إلى مسقط رأسه حيث أصبح أسقفاً في الكنيسة. كان عالماً فذاً في الفلسفة والتاريخ واستطاع أن يدافع عن الحقائق المتعلقة بيسوع المسيح بقوة فاقت ما قام به علماء الدين في الكنيسة الرومانية. حرّر ترتوليان عدة دراسات واجه بها الوثنيين الأمازيغ. وقد بيّن في كتاباته صحة مبادئ المسيحية وانتقد بشدة الاضطهادات التي كانت تقوم بها روما ضد رجال الدين الأفارقة. ويمكن عدّ ترتوليان أول وأقوى كاتب للكنيسة المسيحية في اللغة اللاتينية بشمال أفريقيا. ويعتبر كتابه المعنون **دفاعاً عن الدين** (*Apologeticus*) إحدى اللبنات الأولى الأساسية التي دشّن بها ترتوليان الفقه المسيحي المتخصّص في معالجة القضايا الأخلاقية بشمال أفريقيا. كما تميّزت كتابات ترتوليان بتزاوج الخطابة والبلاغة مع الآراء القانونية. ويمكن أن نقول إن ترتوليان قد حاول المصالحة بين الثقافة الوثنية السائدة ببلاد البربر والديانة المسيحية. كما ألّف عدة دراسات تنظّم الشأن اليومي المسيحي وتدعو إلى الانضباط في حضور العروض، والصلاة، وفي زينة النساء... بالإضافة إلى أنه حرّم الزواج الثاني، وحبّب الصيام والإمساك ودعا الفتيات إلى لباس الحجاب. كما أنه يعدّ الاضطهاد بلاءً لا يجب الهروب منه. وقد توفي سنة ٢٢٢ ميلادية.

يقول ترتوليان: "إننا نتكاثر حينما تحصدوننا... وفيما تأخذونه علينا من عناد عبرةٌ لكم. فمن ذا الذي يشهده ولا يتأثر ثم لا يبحث عن السر فيه (الكتاب المقدس)، ومن ذا الذي يبحث فلا ينضمّ إلينا. ومن ذا الذي ينضم إلينا فلا يتوق للعذاب والموت في سبيل الحصول على الحياة الكاملة والعفو الشامل". ثم يضيف: "يخبرنا المبتدعون أن الرسل لم يعرفوا كل الأشياء، معرّضين المسيح للوم.

من هو الرجل صاحب العقل الصحيح ليفترض أن الرسل كانوا جاهلين؟ فالذي عيّنهم هو الرّبّ ليكونوا معلمين".

– **القديس كايكيليوس سيبريان Thascius Caecilius Cyprien:** لم يعتنق سان سيبريان المسيحية إلى أن بلغ السادسة والأربعين من العمر. كان، أولاً، خطيباً متمكناً ومحامياً يدين بالوثنية كما معظم سكان شمال أفريقيا آنذاك، ثم اعتنق المسيحية وأصبح أسقفاً سنة ٢٤٩ ميلادية. كان سيبريان من عائلة أرستقراطية ذات ثراء واسع، وبعد أن اعتنق المسيحية تصدّق بجميع ممتلكاته لصالح فقراء قرطاج. تتلمذ على يد ترتوليان. كان كاتباً هادئاً ومعتدلاً يدعو إلى السلام والتوافق واتحاد الكنيسة. وبعد فترة من الدعوة أصبح على رأس الكنيسة الأفريقية التي ذهبت منحى يخالف المنحى الذي سنّه البابا إيتيان الأول (٢٥٤–٢٥٧م) بخصوص التعميد وموقع الكنيسة. لكن بعد استشهاد البابا إتيان الأول تحوّل سيبريان عن آرائه المعارضة وانتهج الرأي الرسمي للكنيسة الذي تمّت المصادقة عليه في روما. ومع ذلك، وفي سنة ٢٥٨ ميلادية، سقط ضحية تعسفات الإمبراطور فاليريان الذي أمر بقطع رأسه بعد محاولات غير مجدية للهرب والاختفاء. ويعدّ سيبريان أحد آباء الكنيسة المسيحية ببلاد البربر، خصوصاً فيما يتعلق بتنظيم هرم التعيينات. وتتلخص كتاباته في دراسات أخلاقية وشعائرية، وهي كالتالي: كتاب **الأعمال الخيرية والصدقات**، كتاب **اتحاد الكنيسة الكاتوليكية**، وكتاب يضم بعض المراسلات... ولا تزال كنيسة القديس سيبيان إلى اليوم بقرطاج، وهي من بين المكتشفات الأثرية. وقد تُرجمت نصوصه إلى اللغة العربية ودُرست منذ العصر الوسيط.

– **أرنوبيوس الأكبر Arnobius:** ولد هذا الكاتب في إحدى قرى نوميديا في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي من أبوين وثنيين تربّيا بفكرٍ وثني. اشتهر بتعليم البيان في مدينة سيكة Sicca بأفريقيا بعد أن درس علم الكلام إلى أن صار أستاذاً في تلك المادة. كان أرنوبيوس في البداية ضد المسيحية، ثم تنصّر وهو كهل وأصبح من كبار المدافعين عن الإيمان المسيحي. ولما كان جاداً في معرفة الحق سحبته روح الله من المقاومة إلى عشق الإيمان المسيحي الذي دافع عنه حتى توفي عام ٣٣٠م. جاء في كتابات القديس جيروم أن الأسقف الذي قبل أرنوبيوس وعمّده شكّك في أمر إيمانه عندما طلب الانضمام للكنيسة، فسأله كواعظ أن يثبت صدق إيمانه فكتب أرنوبيوس دفاعاً عن المسيحية في سبعة أجزاء هو *Adversus Nationes*، ترجمته الحرفية **ضد الأمميين**. وقد جاء في جوهره هجوماً على الوثنية التي كانت منتشرة بين البربر في شمال أفريقيا أكثر منه دفاعاً عن المسيحية، وراهن فيه على أن الإيمان بالله ضمان للفوز.

– **لاكتانتيوس الأفريقي Lucius Caellius Firmanus Lactantius**: لاكتانتيوس مدافع أفريقي عن المسيحية كتب باللغة اللاتينية في وقت لم يكن بعد ظهر أحد من المدافعين في روما. دُعي بشيشرون المسيحي أو الأفريقي Christian Cicero، وحاول تقديم الإيمان في إطار منهجي باللغة اللاتينية، لكنه لم يكن باللاهوتي الأصيل. تحمّس للاستشهاد وللفضائل المسيحية، خاصةً محبة الله والقريب، فقدّم المسيحية كنوعٍ من الأخلاقيات، دون التركيز على عمل المسيح الخلاصي، أو على النعمة الإلهية، إنما ركّز على الفلسفة الدينية. وُلد لاكتانتيوس في بلاد البربر، تتلمذ على يد أرنوبيوس، درّب على علوم البلاغة اللاتينية، وكتب أول أعماله **الوليمة** (*Banquet*) وهو شاب صغير. استدعاه الإمبراطور ديوقليسيانوس (٢٨٤–٣٠٤م) إلى نيقوميدية في بيثينية، العاصمة الجديدة للشرق، واستدعى معه فلافيوس البليغ Flavius the Grammarian لتدريس البلاغة اللاتينية. انصرف لاكتانتيوس إلى الكتابة حتى اندلعت نيران الاضطهاد سنة ٣٠٣م، فترك منصبه لأنه صار مسيحياً. استدعاه الإمبراطور قسطنطين الكبير حوالي عام ٣١٣م، وهو طاعن في السن، من أفريقيا إلى تريف أو تراوس Tréveبفرنسا لتهذيب كريسبوس أكبر أبنائه، إذ لم يجد في كل أنحاء المملكة من يصلح ليكون معلماً له مثل لاكتانتيوس. من أفكار لاكتانيوس:

– **الثنائية:** الله كامل كل الكمال، لكن ثمة كائن آخر لم يبقَ أميناً لأصله الإلهي. هذا الأخير انتقل من الخير إلى الشر فأمسى شيطاناً عدواً لله، مصدر كل فسادٍ. اعتقد بمبدأين متناقضين متعاديين هما النور في السماوات والظلام في الأرض.

– **الإنسان:** هو مزيج من عنصرين متعاديين: النفس من الله إلى لله، والجسد من الأرض إلى الشيطان. يلد الجسم جسماً آخر بالتعاون مع جسمٍ ثانٍ، ولكن النفس لا تلد نفساً، فهي من خلق الله مباشرةً، تدخل جسم الجنين وهو في بطن أمه. النفس خالدة لأنها من الله الخالد، وهي لا تموت، إنما تبقى في عذاب أليم إن كانت شريرة.

– **الخير والشر:** كل منهما من طبيعة مختلفة. الله قادر على أن يمحو الشر، لكنه يتركه لتزكية الخير، فكما أنه لا نور بدون ظلام، كذلك لا توجد فضيلة بدون وجود رذيلة.

ومن كتاباته نذكر:

١. **عن خليقة الله** (*On God's Workmanship*): قدّمه لتلميذه الثري ديمتريانوس، وفيه أكّد أن الجسد الإنساني بنظامه العجيب لا يمكن إلاّ أن يكون من صنع كُلّي الكمال، وأنه موضع عناية الله.

٢. القوانين أو المبادئ الإلهية (*The Divine Institutes*): يضم سبعة كتب، ويعتبر العمل الرئيسي. أول محاولة لتقديم ملخّص للفكر المسيحي باللاتينية.

٣. غضب الله (*The Anger of God*): فيه ردّ على الأبيقوريين الذين يرون في الله كائناً جامداً منعزلاً عن العالم، لا يبالي بتصرفات الإنسان.

٤. موت المضطهدين (*The Death of the Persecutors*): كتبه بعد حلول السلام في الكنيسة وانتهاء موجة الاضطهاد، فيه يثبت أن كل مقاومي الكنيسة نالوا نهايةً مريعة.

٥. "طائر العنقاء" ("The Phoenix"): قصيدة يروي فيها قصة العنقاء الشهيرة.

– **القديس أوغسطين Saint Augustine:** ولد القديس أوغسطين سنة ٣٥٤ ميلادية فيما يُعرف الآن بالجزائر، بسوق أهراس، في أواخر أيام الإمبراطورية الرومانية من أم مسيحية وأب أمازيغي يؤمن بالطبيعة والوثنية. عاش أوغسطين حياة العربدة في شبابه، ثم تحول إلى دراسة الفلسفة. انتقل القديس أوغسطين في سن السادسة عشرة من العمر إلى قرطاج ليصقل معارفه ويتمّم تعليمه. هناك ترك التعلم الديني ليتعلم دروساً في الخطابة والبلاغة. ثم في سنّ العشرين أنجب طفلاً صحبة سيدة تعرّف إليها. وفي سنة ٣٧٥ ميلادية درس الخطابة بقرطاج، ثم انتقل هو وعائلته إلى روما، لكنه لم يجد وظيفة شاغرة. ترك عائلته وتزوج للمرة الثانية، ثم توجه إلى ميلان حيث التقى القديس أمبرواز الذي ستكون له معه مناقشات طويلة.

درس سان أوغسطين الفلسفة الإغريقية وخصوصاً الأفلاطونية الجديدة، ثم اعتنق المسيحية سنة ٣٨٧ ميلادية بعد صراع فكري داخلي انتهى بالانعزال في معبد للرهبان. اعتنق القديس أوغسطين أول الأمر المانوية، ثم صار من أتباع المذهب البيلاجي نسبةً إلى الراهب الإيرلندي بيلاجيوس. وبعد اعتناقه المسيحية رُقي الدرجات الكنسية في ظرف تسع سنوات فقط، فأصبح أسقفاً سنة ٣٩٦م في مسقط رأسه، مدينة عنابة، بالجزائر. كرّس حياته لتنظيم الكنيسة الأفريقية وللتأليف الديني، وقد ترك للمسيحيين مؤلفات لا تزال حتى اليوم مرجعاً لهم. ألّف أوغسطين الكثير من المواعظ والتأملات الدينية التي وصلنا منها ٥٠٠ موعظة و٢٠٠ رسالة. أهم مؤلفاته على الإطلاق كتابا **مدينة الرب** و**الاعترافات** (من أهم كتب السيرة الذاتية في التاريخ). تأثر بفلسفة القديس أوغسطين عددٌ من كبار الفلاسفة مثل القديس توما الإكويني وجون كالفن، وبعد ذلك بقرون مارتن لوثر مؤسس المذهب البروتستاني في أوربا وغيرهم. ويعدّ القديس أوغسطين منظّر التاريخ المسيحي بامتياز، فهو من وضع أسس الثقافة المسيحية. كما أنه عُرف كذلك بالحدود الفاصلة بين القوى

الروحية والقوى العابرة. وفي ٢٨ آب ٤٣٠ ميلادية قُتل القديس أوغسطين عن عمر يناهز ٧٨ سنة بعد أن حلّ الوندال بمدينته وخرّبوها على من فيها من الأمازيغ.

من آراء أوغسطين أن الخطيئة الأولى وراثية ولا بدّ من رعاية الله حتى يتحقق الخلاص للإنسان. كما دعا إلى تحريم الجنس غير الشرعي. وفي كتاب **مدينة الرب** دافع عن المسيحية ضد أعدائها وذكر أن المدينة الوحيدة التي لها قيمة هي المدينة المبنية على قيم المسيحية أو ''مدينة الرب''. لذا طلب من الملوك اللجوء إلى سلطة البابا، ذلك أن الخلاص لن يتم إلا عن طريق الكنيسة. جاء تأليف هذا الكتاب بعد سنة ٤١٠ ميلادية حين رأى عظمة روما تتهاوى أمام غزو ملوك القوط الإسبانيين. نعم، مدينة روما تسقط وتبقى مدينة الرب، الماديات تسقط وتبقى الروحانيات، الإنسان يتهاوى ويبقى الرب. لم يرَ أوغسطين أي تناقض بين فلسفة أفلاطون والمسيحية، إذ وفّق بين ''أفكار أفلاطون الأزلية'' والمسيحية باعتبار أن هذه الأفكار جزء لا يتجزأ من الله الأزلي. ومع ذلك فإنه رفض نظرية أفلاطون الدورية، ذلك أن أوغسطين، على خلاف أفلاطون، يؤكّد أن التاريخ في حركة انطلاقاً من البداية في اتجاه نهاية تنسجم مع قول المسيح بخصوص وعده في الإنجيل. وبالنسبة لأوغسطين لا تعدو المعرفة سوى وسيلة للقاء الله، ومن ثم فإن دراسة الكون تؤدي حتماً إلى معرفة دقيقة بحكمة الله. لذا جعل أوغسطين الإيمان فوق كل الاعتبارات، بل جعله فوق المعرفة نفسها. وبالنسبة له، الإنسان مخيّر بين الخير والشر، لكنه في حاجة إلى مساعدة الله والإيمان القوي ليختار الخير.

من مؤلفات القديس أوغسطين:

١– **الإعترافات**: سيرة ذاتية تحكي شبابه التائه واعتناقه للمسيحية.

٢– **مدينة الرب**: نصه الأساسي الذي عرّف ضروريات وحدود الثقافة المسيحية. مدينة الرب هي تَجَمُّع عام للصالحين حيث يقيم الله وملائكته والتقاة من عباده، بالإضافة إلى كل الناس الشرفاء فوق الأرض. في هذا الكتاب يحدّد أوغسطين الفرق بين الواقع المادي والوعد الرباني. وطبعاً، كل شيء ينتهي في ''المدينة الفاضلة'' مدينة الرب التي لا توجد على الأرض.

٣– ألّف القديس أوغسطين أيضاً ١١٣ مقالة حول مواضيع مختلفة (الموسيقى مثلاً) و٢١٨ رسالة تبادلها مع الأساقفة والملحدين والوزراء والأباطرة، بالإضافة إلى ٥٠٠ مقال قصير حول الشعائر الدينية (الصوم، العبادات وطقوس الموت والدفن...) وحوارات حول الفلسفة الأفلاطونية ودراسة حول ديانة روما القديمة.

من أقوال القديس أوغسطين المأثورة:

١- ’’تقود العناية الربانية تاريخ البشرية منذ آدم إلى نهاية التاريخ، كأنما يتعلق الأمر بتاريخ فرد واحد يمرّ من الطفولة إلى الشيخوخة‘‘.

٢- ’’سكان ’مدينة الرب‘ من كل القبائل، فهي تجمع عناصرها من كل حجاجها كيفما كان لسانهم، دون تمييز بين العادات والقوانين والمؤسسات التي تفرق بينهم‘‘.

٣- ’’’يضطرب القلب حين لا يجد الراحة في تعلقه بالله‘‘.

٤- ’’أؤمن لأفهم‘‘.

٥- ’’أن تشكّ، هذا يعني أن تؤمن ضمنياً بوجود الحقيقة، وأن تأمل في الحصول على المعرفة‘‘.

٦- ’’الإرادة الصالحة إنجاز إلهي، أما الإرادة السيئة فهي الابتعاد عمّا أنجزه الله‘‘.

الفصل الرابع

آلهة البربر

من التعاريف المتداولة للأسطورة بين الكتاب والمؤرخين وعلماء الاجتماع هو أنها قصة خرافية تجسّد فيها بعض الكائنات مكنونات المخيلة الشعبية، وذلك ضمن أشكال رمزية تحاكي قوى الطبيعة التي تبدو عبر تاريخ البشرية مخيفة أو أنها فوق بشرية (ميتافيزيقية). وتعرّف الميثولوجيا بأنها مجموعة من الخرافات التي حكتها الأمم البائدة، لكنها أيضاً، وبصيغة أكثر عمقاً، تعبّر بدقة عن ثقافة عصرها ومعارفه وقيمه (سيّد القمني، ١٩٩٩). ويمكننا من خلال دراسة الأسطورة اكتشاف التاريخ الأكثر قرباً من الحقيقة. بمعنى آخر، هي، أي الأسطورة، عاكسة لمجموعة الأنظمة الاجتماعية والثقافية السائدة، ومكثّفة لفلسفات الشعوب ومحاولاتها الفكرية الأولى وتفسيراتها لظواهر الطبيعة غير المفسّرة علمياً. إن أية ثقافة شعبية تحتاج إلى الميتافزيقيا كمجال لتوسيع دائرة الأحلام والتخلص من السلطة المفتعلة. وحتى الثقافات العالمة أولت الأسطورة منذ العصر اليوناني الأول اهتماماً كبيراً. إن في الربط بين الأسطورة والأيديولوجيا، وبمعنى آخر الربط بين الأنتروبولوجيا وعلم السياسة، حفظ لكينونة الشعوب واعتقاداتها (شنوان، ٢٠٠٦). ويمكن القول إن الأمازيغ عبدوا عدة معبودات أسطورية محلية وفينيقية ويونانية ومصرية. وتعد "تانيث" و"آمون" و"أطلس" و"بوصيدون" و"أنتي" كلهم آلهة أمازيغية في الأصل أو بالتبني. ومن خلال دراسة هذه المعبودات وتتبع انتشارها في حضارات البحر الأبيض المتوسط يمكن تلمّس مدى التثاقف الذي كان سائداً بين الأمازيغ وأصحاب حضارات البحر الأبيض المتوسط من مصريين وفينيقيين ويونان ورومان.

٤-١- الإله آمون (Amun): إله مشترك بين المصريين والأمازيغ

تبنّى الأمازيغ إله المصريين آمون، وحين استقر الإغريق بقورونيا (ليبيا) تبنّوه هم أيضاً نقلاً عن الأمازيغ، وفيما بعد شخّصوه بكبير آلهتهم زيوس (Zeus). كما شخّصه الرومان حين استقروا في شمال أفريقيا بكبير آلهتهم أيضاً، ثم أحدثوا بين آلهتهم وبين آمون المصري المشحون بشحنة

أمازيغية تمازجاً فريداً. أيضاً مزجه البونيقيون بكبير آلهتهم بعل حين اختلطوا بالأمازيغ بمدينة قرطاج. وآمون هو إله الريح والخصوبة عند المصريين، ومعنى اسمه "الخفي". اعتبر آمون خالقاً لنفسه محدثاً لذاته، كما كانت له القدرة على التجدّد وإعادة خلق نفسه التي مُثّلت بقدرته على التحول إلى أفعى وتغيير جلده، ومع هذا فقد ظلّ مختلفاً عن الخلق، منفصلاً ومستقلاً عنه. كانت زوجته أحياناً تدعى "آمونت"، الصيغة المؤنثة لآمون، ولكنها غالباً ما كانت تُعرف بالاسم "موت"، وكان لها رأس بشر مرتدية التاج المزدوج للوجهين القبلي والبحري، وكان ابنهما هو "خونسو" القمر. جميعهم شكّلوا ثالوث طيبة. صُوِّر آمون في هيئة آدمية، لكنه كان يُمثَّل أيضاً بالكبش وفير الصوف ذي القرنين المعقوفين اللذين أصبحا يُعرفان باسمه (قرنا آمون)، ووُجد ممثّلاً بهذه الصورة منذ عهد أمنحوتب الثالث. والكبش طبعاً هو آله من آلهة البربر رعاة الغنم (أيت بوأولي في الأمازيغية).

٤ــ٢ــ بوصيدون: "إله البحار السبعة" عند الأمازيغ

بوصيدون هو إله البحر في الميثولوجيا الإغريقية والأمازيغية، ويُعرف في الميثولوجيا الرومانية باسم نبتون. وبوسايدن الإغريقي هو ابن كرونوس وغايا، وشقيق زيوس كبير الآلهة، وهيرا كبيرة الآلهة، وديميترا إله الأرض والخصب، وهاديس سيد العالم السفلي. بوسايدن (بوصيدون عند الأمازيغ) هو إله الزلازل والعواصف البحرية والماء، وباني طروادة برفقة ابن أخيه أبولو، ومُوجد الحصان السريع، والحصان المجنّح بيغاسوس. وحسب الميثولوجيا الأمازيغية فإن بوصيدون هو أبو البطل الأسطوري الأمازيغي أنتايوس أو عنتي بالأمازيغية، وهو زوج غايا إلهة الطبيعة والأرض، كما أنه أبو تانيث وأطلس. ويمكن القول اعتماداً على أسطورة أنتايوس إن بوصيدون كان مرتبطاً بطنجة، المدينة المغربية، ذلك أن طنجة تجمع بين الأرض، أي المكان المفضل لغايا، إلى جانب البحر وهو المكان المفضل لبوصيدون كإله للبحر. أما اعتماداً على رواية هيرودوت فقد كان بوصيدون يُكَرَّم من قبل الأمازيغ الذين سكنوا حول بحيرة تريتونيس إلى جانب آلهة أخرى. وقد صوّره هيرودوت كإله يتنقل في أعماق البحار على عربة تجرها أحصنة ذهبية حاملاً حربة، وعند غضبه يهيج بها أمواج البحر.

٤ــ٣ــ غايا: ربة الأرض عند الأمازيغ

غايا هي ربة الأرض وزوجة إله البحر بوصيدون. غايا هي أيضاً أم البطل الأسطوري الأمازيغي أنتايوس أو عنتي كما سماه الأمازيغ القدامى. ويمكن أيضاً الاعتماد على أسطورة أنتايوس الذي ارتبط بطنجة، حيث ما كان له أن يكون بطلاً لا يقهر دون أمه الأرض غايا، فهي التي تجدد قواه كلما عاد إليها ومرّغ جسده في ترابها.

٤-٤- عنتي: حامي أرض البربر (Anter – Anti – Antayus)

عنتي (يعرف أيضاً بـ آنتايوس أو آنتي) هو حامي أرض الأمازيغ ضد الأجانب. أما الأسطورة الإغريقية فتعرفه بالعملاق الليبي. عنتي، وهو ما قد يعني ''المصارع'' أو ''المحارب''، كما جاء في اللغة المصرية القديمة. وحسب الأسطورة دائماً، فإن عنتي هو ابن رب البحر بوصيدون وربة الأرض غايا، كما أنه زوج تينجا التي تسمّى أيضاً تنجيس التي نسبت إليها مدينة طنجة. وحسب العديد من الكتاب القدماء فإن حدائق الهسبريد، التي حُدّد موقعها عند الكتاب الكلاسيكيين بين منطقة طنجة والليكسوس، كانت مقرا لعنتي. ويعتقد بومبونيوس أن في طنجة دُفن تِرْسُ عنتي الضخم، وهو مصنوع من جلد الفيلة، وأنه نظراً لضخامته لم يقدر أحد على حمله واستعماله ليظل مدفونا بطنجة. لا يعتبر عنتي إلهاً بالمفهوم الكلاسيكي للآلهة عند الشعوب القديمة كبوصيدون وزيوس وغيرهم من الآلهة، وإنما هو يعتبر بطلاً من أنصاف الآلهة الذين يُعرفون أيضاً بالعماليق. وأنصاف الآلهة غالباً ما يكونون ثمرة علاقة بين إله كامل وامرأة فانية. لكن عنتي، ورغم تصنيفه كذلك، فهو ابن لإله وإلهة متكاملين، وهما بوصيدون إله البحر وغايا إلهة الأرض التي تُعرف أحياناً بأم العماليق. ويكمن دور عنتي، حسب المصادر التي وصلتنا، في كونه البطل الذي لا يُهزم طالما أمكنه الاتّصال بأمه الأرض. وقد تكفّل بحماية أرض الأمازيغ ضد كل من يحاول التسلل إلى أرضهم قصد إيذائهم. ويذكر أن عنتي كان يقطع رؤوس الغرباء الذين يحاولون التسلل إلى البلاد التي يحكمها، وكان يبني بجماجمهم معبداً لأبيه بوصيدون.

وتذكر المصادر الإغريقية أيضاً أن هرقل، بعد تمكّنه من الحصول على التفاح الذهبي الذي أخذه من حدائق الهسبريد بمنطقة الليكسوس بالمغرب، كان عائداً إلى مدينة ميسينا، فتحداه عنتي واعترض طريقه فصارعه هرقل. وفي صراع أسطوري طويل تمكّن هرقل من معرفة نقطة ضعف عنتي فرفعه عن الأرض فخارت قواه، وبالتالي تمكّن من القضاء عليه. وقد اعتبر هذا الانتصار أحد أهم أعمال هرقل إلى جانب المهام الاثنتي عشرة المستحيلة التي أنجزها ليفوز بالأبدية. ويعتقد

البعض أن الصراع الأسطوري الذي وقع بين العملاق عنتي والإله هرقل يجسّد صراعاً واقعياً بين الأمازيغ والإغريق، وهو صراع دار بين كلا الشعبين خلال القرنين السادس والخامس قبل الميلاد.

٤ـ٥ـ الإلهة نيث/أثينا: إلهة مشتركة بين الإغريق والبربر

أثينا، التي سمّيت باسمها أعظم مدينة إغريقية، هي عند الإغريق رمز الحكمة والفنون والعلوم والحروب، وكانوا يرمزون إليها كما لو كانت عذراء ويعتبرونها حامية الدولة والنظم الاجتماعية وكل شيء يسهم في تدعيم الدولة وازدهارها مثل الزراعة والصناعة والاختراعات. وكانت بذلك مخترعة المحراث والمجرفة وزارعة أشجار الزيتون، وهي من علّم الناس كيف يعقلون الثيران في المحراث وكيف يستأنسون الخيل باللجام، وينسبون إليها ابتكار الأرقام والناي والعجلة، إلى جانب بناء السفن وصياغة الذهب وصناعة الأحذية. وحسب الأسطورة فقد تكفلت ثلاث مُطعِمات يرتدين جلد الماعز بإطعام أثينا والسهر على نموها. ويعدّ بالاس لقباً لصيقاً بالمعبودة الإغريقية أثينا، بحيث ترد في حالات عديدة باسم بالاس أثينا. ويعتقد البعض أن بالاس تعني العذراء أو البنت في اللغة الإغريقية. أما عند الأمازيغ فتعدّ نيث ربة الخصوبة وحامية مدينة قرطاج، عبدها البونيقيون كأعظم ربات عاصمتهم وجعلوها رفيقة لكبير آلهتهم بعل. ويؤكّد معظم مؤرخي مصر الفرعونية أن نيث معبودة استقرت في غرب الدلتا، ثم عبدها الإغريق حين احتلوا مصر حيث عُرفت باسم أثينا. أما الميثولوجيا الإغريقية فاعتبرت أن أثينا هي ابنة زيوس إله الحرب والسماء وأبي الآلهة.

٤ـ٦ـ الإله أطلس: إله مشترك بين الإغريق والبربر (ATLAS)

يفترض العلماء أن حوض البحر المتوسط شهد طوفاناً في حدود عام تسعة آلاف قبل الميلاد غمر قطعةً مستطيلة الشكل من اليابسة كانت بها حضارة مزدهرة. وقد استحوذ وجود أو عدم وجود حضارة أطلنتيد بهذه الجزيرة على خيال المستكشفين منذ قرون، وطبقاً لما يقوله الفيلسوف الإغريقي أفلاطون فإن أطلنتيد (الجزيرة) كانت دولة نشأت بها حضارة متقدمة قبل ١١.٥٠٠ عام. وهناك نظريات عدة تحاول تفسير اختفاء أطلنتيد، بدءاً من تعرضها لكارثة طبيعية ووصولاً إلى الأسطورة الإغريقية القائلة إن الجشع والسلطة أفسدا هذه الحضارة إلى حد أن دمرتها الآلهة وانطمرت كلياً، في حين يعتقد علماء وباحثون مشككون أن حضارة أطلنتيد مجرد أسطورة من نسج

خيال أفلاطون. ويُعتقد أن جزيرة أطلنتيد المفقودة قد أخذت اسمها عن الإله أطلس المذكور في الميثولوجيا الأمازيغية وكذا الإغريقية، إلا أن البعض يرى أن أطلس (أو أطلنتيد) ليس سوى الإله أنتيوس أو أنتي أو عنتي الذي أشرنا إليه سابقاً. ويعدّ أطلس أحد العمالقة الأقوياء، وهو من بين العمالقة الذين اكتسحوا جبل الأولمب الذي يحظى بمكانة عظيمة في الميثولوجيا الإغريقية، وجزاءً على تجرّئه على القيام بذلك عاقبه الرب زيوس بأن حكم عليه أن يحمل قبة السماء فوق رأسه إلى الأبد. أما في الميثولوجيا الأمازيغية فهو كائن شديد العلو بحيث لا يُرى جزؤه العلوي من الرأس سواء صيفاً أو شتاء.

٤ـ٧ـ الإله أنزار: إله المطر عند البربر

هناك طقوس للبربر قديمة لا تزال قائمة إلى الآن، وهذه الطقوس تتعلق بطلب الماء، وتُسمّى "تَغَانْجَا"، أي المغرفة. و"تَغَانْجَا" هي مجموعة من الممارسات يقوم بها الشبان والشابات حيث يخرجون وتحمل إحداهن مغرفةً كبيرة مزينة بالحليّ ومكسوّة بأجمل الملابس على شكل يجسّم عروساً ويرددن أشعار "تل أغنجا"، ويتم ذلك في الفصول الجافة عندما ينبجس المطر، وهي بمثابة دعوات استسقاء خاصة بشعب البربر. وتختلف النصوص الشعرية التي يرددها المحتفلون من منطقة إلى أخرى. وفي اقتباس من الأمازيغية لسكان الصحراء المعقليون العرب الذين اختلطوا ببربر صنهاجة وتأثروا بمعتقداتهم يقول نص الدعاء:

غنجا إلا إلا (المغرفة ها هي، ها هي)
جيب سحاب بلا كلا (إيت بالمطر بلا جرة)
غنجا شكات لمراح (المغرفة مرت بالفناء)
ياربي سيّل لبطاح (يا ربِّ أمطر حتى تسيل المجاري)
غنجا حلت راسها (المغرفة فتحت رأسها)
ياربي ابلغ خراسها (يا ربِّ املأها بالماء)

وتحكي الأسطورة أن الإله أنزار (إله المطر) ظهر ذات يوم في صورة بشر، وبعد أن أمطرت السماء مدراراً رأى فتاةً جميلة تستحم في وادٍ محاط بأشجار الدفلى. أعجب الرب أنزار بالفتاة أيّما إعجاب وأقسم أن يجعلها رفيقته في خلوته ويقاسمها كنوزه وسلطانه في السماء إن هي تبعته. لكن الفتاة خافت وتمنّعت عليه وهربت. تبعها، وحين أمسك بها ما كان منه إلا أن هددها بجعل النهر يجفّ ومنع المطر من السقوط. تمادت الفتاة في رفضها، ومع الرفض بدأت المياه تنحسر عن النهر، فرقّت لحال قومها وقبلت الزواج منه. وما أن

فسخت ثيابها حتى خطفها الإله أنزار، ثم عاودت المياه جريانها في الوادي من جديد ولم يرتد لها طرفها (أهريشي، ٢٠٠٢).

بهذا نكون قد أتينا على ذكر أهم المعتقدات والديانات والأساطير التي صاحبت البربر عبر تاريخهم الطويل الحافل بالتجديد والمثاقفة. إن المجال الجغرافي الذي وُجد فيه البربر جعلهم يطوّرون ثقافتهم العقائدية عبر الاحتكاك بثقافات غيرهم، التي لم يتأثروا بها فحسب بل تبنّوها وأضافوا إليها مما جعلهم أصحاب ثقافات وحضارات عديدة لا يجب حصرها في جبل أو مغارة أو سهل أو صحراء. إن أمازيغ شمال أفريقيا كانوا ومازالوا نقطة لقاء المعتقدات الغربية والشرقية على حدٍّ سواء. لقد عرفوا كيف ينحتون ثقافةً مغاربية متميزة تمتح من معتقدات متعددة قدمت إليهم من الشرق ومن الشمال ومن الجنوب. ولعمري لم يستوعب شعب ما استوعبه الأمازيغ عبر تاريخهم الطويل مما حمله إليهم الوافدون عليهم، محافظين مع ذلك على معتقداتهم الأصلية بعد أن ألبسوها لباس الوافدين عليهم، دون إحساس بالنقص أو الإحباط. وثنيون كانوا يعبدون الطبيعة في جميع تجلياتها (شمس/ قمر/ نار/ حجارة ومغارات...)، ثم دانوا باليهودية والمسيحية قبل أن يعتنقوا الإسلام. أضف إلى ذلك أن آلهتهم الأسطورية (آمون/ أنزار/ بوصيدون/ غايا/ عنتي/ تانيت/ أطلس...) حاكت آلهة المصريين والفينيقيين والإغريق والرومان.

الفصل الخامس

أمراء وملوك البربر

الأمازيغ الأحرار هم الشجعان المدافعون عن الشمال الأفريقي عبر العصور، منهم الملوك العظام والفرسان الأشاوس الذين ملأوا الآفاق بأخبار البطولة والمقاومة. لا مراء في أن هذه الرقعة من العالم التي تواجدت عند مفترق الطرق بين ثقافات الغرب والشرق، عند أطراف حضارات العالم القديم، كان على حكامها رفع راية التحدي لمواجهة الأطماع. أخبار هؤلاء الملوك والأمراء لم تحفظها لغتهم الأم التي ظلت شفهية عبر التاريخ، بل إن لغات العالم المصري واليوناني والروماني هي التي دوّنت لنا شذرات هنا وهناك تكفينا لحل اللغز.

الأمازيغ، كما تظهر ذلك كل أحقاب تاريخهم، متعلقون بالحرية، نزّاعون إلى الاستقلال، متطلعون إلى أسباب المنعة والقوة. وقد كانت الحروب فيما قبل مجيء الفينيقيين للتوسّع شرقاً وجنوباً، واستمر الكفاح في الفترة الممتدة بين مجيء الفينيقيين ودخول الاسلام من أجل صيانة الاستقلال ومدافعة الأجنبي (الغربي، ١٩٧٣). كان الأمازيغ أقوياء شجعاناً لا يقهرهم لا إنس ولا حيوان، كانوا يصارعون الفيلة والسباع والنمور ووحيدي القرن المنتشرة بكثرة في أرض الخصب جنوب البحر الأخضر، يصطادون منها المئات والمئات، بل قل الآلاف التي كانت تجوب سفوح وجبال وصحاري مغرب ما قبل الميلاد وبعده. يأخذون جلودها وفروها وعاجها ويبيعونه في بلاد الرومان حيث يلبسها العارضون في المسارح وفي السيرك الجوال وفي حلبات المصارعة التي كان يحضرها الأمراء والأميرات. سنحاول الآن أن نرصد سير أهم ملوك البربر قبل الفتح الإسلامي محترمين التسلسل الزمني والتوزيع الجغرافي في كل جهات الشمال الأفريقي. ولنبدأ بأولهم، الملك شيشنق الذي صادف اعتلاؤه العرش بداية التأريخ الأمازيغي، وذلك سنة ٩٥٠ قبل الميلاد.

١ـ شيشنق أمزوار: الأمازيغي الذي حكم مصر (Cicnnaq Le Premier)

بعد وفاة بزوسينيس الثاني (Psossenes II) سنة ٩٥٠ ق.م، استولى شيشنق (Cicnnaq) على الحكم في مصر الفرعونية وأسّس لملك الأسرة الثانية والعشرين. وقد أعطى الشرعية لملكه بتزويج ابنه أسورقون (Osorkon) من الأميرة ماكار (Makare) ابنة بزوسينيس الثاني المتوفى، كما جعل من ابنٍ ثانٍ له قسيساً أكبر لمعبد آمون بالتيبيس، وأسّس عاصمته بوباستيس وثبت دعائم ملكه بإقطاع أراضي دلتا النيل لرجال من قبيلته الليبية الأمازيغية. وبذلك بدأ عهد إقطاعي جديد بمصر خلال السنة الأولى في التقويم الأمازيغي (سنة ٩٥٠ ق.م) الذي يوافق اعتلاء البربر عرشَ مصر الفرعونية. ويتحدث لوح حَارْپِسون عن ''كَارَعْ ومَاع'' باعتبارها زوجة شُشِنْق وأم أُسُورقون الأول، إلا أنها أحياناً يشار إليها بأنها مُحبة الإله. أما الابن الثالث فهو ''نِمْرَات'' الذي عُرف بكونه رأس الجيوش كلها وزعيماً عظيماً للأجانب، وأيضاً بأنه ذو أصل نبيل، كانت أمه ''پِنْرِشْنَاس'' ابنة زعيم عظيم للأرض الأمازيغية. وكان ''إيوبوت'' الابن الذي أسندت إليه كهانة ''آمون رَع''، وكانت هذه خطوة حكيمة وضعت هذا المنصب الهام تحت تحكّم الملك الأمازيغي لدرء كل محاولة تمرد أو تحدٍّ يقوم بها رجال الدين الأقوياء.

يعود أصل شيشنق إلى قبيلة المشوش. ويرجّح الباحثون أن المشوش، وهم من أصول أمازيغية، سكنوا المناطق الشمالية من الصحراء الليبية، وأن ديارهم كانت تمتد غرباً حتى المناطق التي تمثل تونس الحالية. وقد أشار إليهم هيرودوت، مؤرخ اليونان الكبير، بأنهم يقيمون بمحاذاة بحيرة تريتونيس. لكن، مع بداية الأسرة الثامنة عشرة المصرية، بدأ المشوش يتجمعون حول حدود مصر الغربية طلباً للإقامة الدائمة حول دلتا وادي النيل. ورغم أنهم فشلوا في الوصول إلى مصر عن طريق الحرب المباشرة، إلا أنهم استطاعوا الاستقرار في الكثير من مناطق مصر سواء في حاميات الحدود أو بانضمامهم إلى الجيش الفرعوني كجنود مرتزقة. لذا أصبح الجيش المصري ابتداءً من الأسرة العشرين يتكون من أغلبية أمازيغية. وكان ملوك مصر في ذلك الوقت يقدمون لهؤلاء الجنود هبات من الأرض كأجور لهم، مما أدى إلى تكون مجموعة عسكرية أمازيغية من ملاّك الأراضي بمصر. كما وصل بعض العناصر من المشوش إلى مناصب هامة في البلاط الفرعوني وإلى مراكز القيادة المتقدمة في الجيش. ونتيجةً لتعاظم سلطان كهنة طيبة المصريين، استدعى الفراعنة جيوشهم من الأمازيغ ليُخضعوا هؤلاء الكهنة وأعطوهم مقابل ذلك أراضي إضافية، مما سيؤدي إلى نماء جاههم وتعاظم مراتبهم، فكانت الفرصة سانحة للزعيم شيشنق ليستولي على سدة الحكم ببلاد مصر. لا يعتبر ملوك الأسرة الثانية والعشرين غزاةً جدد، حيث أن أكثر النظريات شيوعاً تقضي بأنهم

سلالة الأسرى، وأحياناً مستوطنون متطوعون أُعطوا حق الإقامة مقابل خدمتهم في الجندية. وربما يكون ما دفع القبائل الأمازيغية للنزوح نحو وادي النيل مجاعة عمّت موطنهم الأصلي بليبيا القديمة.

٢ــ سيفاكس الثائر (Sephax)

اتّخذ سيفاكس الجنوب التونسي مملكةً وجعل عاصمتها صفاقس أو سيفاكس المنسوبة إليه. وقد كانت من عظمة هذه المملكة أن قرطاجة سعت إلى التحالف مع سيفاكس ضد الرومان وصاهرته بإحدى بنات الأرستقراطية القرطاجية. استقل سيفاكس بإمبراطوريته الممتدة لتشمل جزءاً من أراضي الجزائر الحالية وجلب إليها معالم الحضارات القرطاجية والرومانية واليونانية من فنون وآداب وعلوم. وقد علّقت عليه القبائل الأمازيغية بالمغرب الكبير آمالاً قوية للاستقلال السياسي عن الأجانب. حمل سيفاكس التاج وضرب العملة باسمه ونظم الجيش واستعان بابنه أورمينا (Vermina) في تسيير الشؤون الحربية. وقد يكون هذا الملك هو المشار إليه عند ابن خلدون حين قال: ”إن جدهم هو سفك...“.

كانت العلاقة بين الملكين الأمازيغين سيفاكس ومسينيسا متوترة في الغالب لكونهما يتحالفان، كلٌّ من جهته، مع كلٍّ من الرومان أو القرطاجيين. وقبل أن يتحالف مسينيسا مع الروماني شيبو الأرشد، تحالف مع القرطاجيين وحارب معهم ضد الرومان المتحالفين مع سيفاكس. وهذا الأخير كان يمنّي نفسه بالسطو على قرطاجة، لكنه انهزم. ثم انتقل مسينيسا ليحارب صحبة هنيبعل المحاصر لروما. وخلال هذا الغياب جمع الملك الماسيلي المهزوم سيفاكس قواه وتوجّه محاصراً قرطاجة بعد أن شتّت شمل البلاد التي كان يحكمها غايا (Gaya)، أبو مسينيسا، انتقاماً لمساندة ابنه للقرطاجيين. أمام ضرب الحصار، قرر القرطاجيون الصلح مع سيفاكس، بل وزوّجوه بمن كان يفترض أنها خطيبة مسينيسا، الجميلة صوفونيسبا. وبسبب هذا الغدر المشين من قبل القرطاجيين انتقل مسينيسا من التحالف معهم إلى التحالف مع الرومان. وهكذا جنّد القائد ماسينيسا ٢٠٠ ألف جندي أمازيغي إلى جانب الجيوش الرومانية، وكذا بنفس العدد جنّد الملك سيفاكس تعداداته العسكرية في سنة ٢٠٣ ق.م مدافعاً ضد الرومان عن ملكه. لكن تحالف سيفاكس مع القرطاجيين جعل سلطانه ينهار كلياً بعد الغزو الروماني لقرطاجة.

٣ــ مسينيسا النوميدي: ”أفريقيا للأفريقيين“ (Massinissa)

بعد ثلاثٍ وعشرين سنة من الحرب البونية الأولى بدأت الحرب البونية الثانية (٢١٨ ق.م – ٢٠٢ ق.م)، وفي أثنائها غزا القائد القرطاجي هنيبعل إيطاليا قصد احتلالها. إلا أن الجيوش الإيطالية قاومت هذا الغزو، وقد استطاع شيبون (Sipo)، القائد الروماني الملقّب بالأرشد لما حازه من علم وثقافة واسعين، الوصول إلى سواحل أفريقيا، حيث انضمت إليه قوة من أهالي البلاد تحت زعامة القائد الأمازيغي مسينيسا الذي ساعد الرومان على هزيمة القرطاجيين والانتصار على أعظم جنرال عرفه التاريخ، ألا وهو هنيبعل القرطاجي، في معركة فاصلة هي معركة زاما الشهيرة سنة ٢٠٢ ق.م. بعد هذا النصر صمّم الرومان منع عودة القرطاجيين إلى سلطانهم السابق بأفريقيا، واشترطوا على قرطاج التنازل عن إسبانيا وتخفيض أسطولها إلى عشرة سفن، كما دبّروا خطة لشلّ قوة قرطاجة، وذلك بأن شجّعت مطامع الزعيم الأمازيغي مسينيسا في حكم أرض أجداده بشمال أفريقيا.

تمكّن ماسينيسا من توحيد القبائل الأمازيغية بشمال أفريقيا ووسّع حدود مملكته وجعلها تمتد من وادي مولوتسا (ملوية) غرباً إلى أراضي طرابلس الحالية شرقاً، ولم يفلت من يده إلا مملكة موريتانيا الطنجية غرب الملوية وما بقي بيد الفينيقيين داخل قطر قرطاج الضيق. وبذلك أصبح مسينيسا ملكاً على بلاد النوميديين ليبدأ بوضع أسس الدولة الأمازيغية الموحدة وفيها عيّن عاصمة لحكمه مدينة ''سيرطا'' وأصدر عملة وبنى مجموعة من المرافق ذات الصبغة الدينية والإدارية، واتخذ الأمازيغية شعاراً لأفريقيا. حافظ مسينيسا على تماسك أطراف مملكته بالوسائل السياسية التقليدية، أي بالمصاهرات والتعاهد مع زعماء القبائل، وإيقاظ المشاعر العقائدية والعرقية، وبالحرب عند الضرورة، فاستطاع بذلك أن يجبي الجبايات وأن يفرض على رعاياه نوعاً من الخدمة العسكرية، على غرار ما هو مألوف عند جميع الأمم ذات البنى الاجتماعية القبلية. ثم أنشأ أسطولاً حربياً وأسطولاً تجارياً، وفتح أبواب مملكته للتجار اليونان والرومان.

كرّس مسينيسا مجهوداته المعنوية والمادية لتحقيق أحلامه بإنشاء مملكة كبيرة تمتد من الغرب حتى حدود برقة على أن تكون قرطاج عاصمتها. لكن استمرار ما تبقى من حكم الفينيقيين بقرطاج كان عائقاً لتحقيق ما كان يرمي إليه، فشرع في القيام بمناوشات عسكرية داخل الأراضي التي أبقتها معاهدة الصلح بين روما وقرطاج في أيدي الفنيقيين، ثم انتهز الفرصة في محاولة للاستيلاء على مدن طرابلس، وذلك بحجة مطاردة أحد الثوار الفارين إلى إقليم برقة؛ فطلب من حكام قرطاج السماح له بالعبور للقضاء على الثائر الهارب، إلا أن طلبه أجيب بالرفض. لذا أعلن ماسينيسا الحربَ على قرطاج، فتمكّن من احتلال منطقة الجفارة. وأمام اعتداء الزعيم الأمازيغي على أملاكها في ليبيا قدّمت قرطاج احتجاجاً إلى روما. تدارس مجلس الشيوخ الروماني هذا الاحتجاج، فقرر

إرسال لجنة للتحقيق في الأمر. إلا أن روما عادت وأيّدت حليفها ماسينيسا مرةً أخرى وأمرت قرطاج أن تتنازل عن مدن طرابلس لصالح حليفها مسينيسا، وأن تدفع ضريبة مقدارها ٥٠٠ تالنت بسبب تأخرّها عن تنفيذ ما أمرت به.

عاش مسينيسا ما يقارب ستين سنة كزعيم للبربر، وقد حاول أن ينظم مملكته على النمط الإغريقي المقدوني. وفي عهده قدم إلى العاصمة "سيرطا" عددٌ من الأدباء والفنانين اليونان وجعلوا منها مدينةً راقية في حياتها المادية والفكرية. كان الملك نفسه معجباً بالحضارة اليونانية، وكان يعمد إلى تقليد ملوك اليونان، فأكل في الآنية الفضية والذهبية، واتّخذ جوقةً من الموسيقيين الإغريق، كما لبس التاج وحمل الصولجان، حسبما يظهر في النقود التي ضُربت له. ولا شك أن التجار اليونان كانوا يروّجون بضاعتهم ببلاد البربر بفضل ولع ملكهم بكل ما هو يوناني، ما أدى إلى ازدهار المملكة حيث عمّ الرخاء وانتشرت الثقافة بجميع ألوانها. كان مسينيسا رجلاً عظيماً وضع للسكان الوطنيين حكومتهم، وأنشأ اقتصادهم، وطور ثقافتهم، وهو القائل: "أفريقيا للأفريقيين". تولّى بعد ماسينسا خليفته ميسيبسا (Micipsa) سنة ١٤٨ ق.م، الذي تخلّى عن سياسة أبيه التوسعية تحت تهديد الرومان.

٤ـ أكليد يوغرتا (Jugurtha): "هنيبعل الأمازيغ" الثائر على الرومان

بعد وفاة مسينيسا تفرّق المُلك بين أبنائه الثلاثة، حيث تكلّف ميسيبسا بإدارة مملكة النوميديين، وجيليسا بالجيش ومستنبال بالعدل. فترة قصيرة بعد ذلك توفّي الأخوان جيليسا ومستنبال ليستفرد بالحكم الملك ميسيبسا مدةً طويلة تراوحت ما بين ١٤٨ إلى ١١٨ ق.م. وهي مدة ظل خلالها حليفاً قوياً لروما متنازلاً عن سياسة أبيه التوسعية. وعوض أن يوصي بالحكم لأحد ابنيه أدربعل أو هيمبسال، اختار خليفةً له يوغرتا ابن أخيه المتوفى مستنبال. ويرجع سبب تفضيل يوغرتا على باقي أفراد الأسرة الملكية إلى أنه تربّى يتيماً في كنف عمه الملك ميسيبسا الذي أحبه كثيراً، كما أن يوغرتا أظهر من الخصال الخلقية والقدرات العقلية والمؤهلات الجسدية ما أفرح عمه الملك واستوجب رضاه. لم يستكن يوغرتا لحياة البذخ داخل القصر، بل إنه كان يشارك في السباقات والمصارعات ويربحها، كما أنه كان السبّاق للخروج إلى الصيد ومهاجمة الأسود والحيوانات الضارية، ما جعل الجميع في قبائل النوميديين يحبونه ويرون فيه صورةً طبق الأصل لجده مسينيسا العظيم. حارب يوغرتا إلى جانب الرومان متزعماً فرسانه من النوميديين وأبان عن شجاعة وإقدام

نادرين، بالإضافة إلى حنكته في اتخاذ القرارات وإعطاء المشورة في ساحة المعارك، ما جعل شيبون إميليان الروماني يكلّفه بكل المهمات الصعبة والخطيرة التي كانت تصادف الرومان في شمال أفريقيا. وقد كتب شيبون الروماني للملك ميسيبسا خطاباً جاء فيه: "لقد أظهر يوغرتا ابن أخيكم عن شجاعةٍ نادرة وفكرٍ ثاقب خلال مشاركته في معاركنا، أظن أنك ستكون سعيداً بذلك. هذا رجل في مستوى تقديرنا لك ولجده مسينيسا".

توفي الملك ميسيبسا سنة ١١٨ قبل الميلاد، ليتنازع ابناه أدربعل وهيمبسال وابن أخيه يوغرتا الملك. وفي مواجهة بين يوغرتا وهيمبسال قُتِلَ هذا الأخير ليتأجج بذلك الصراع على الحكم. تعاطف النوميديون مع أدربعل، أخي الأمير المقتول، إلا أن الجيش ظلّ وفياً ليوغرتا، وبذلك تمّ طرد أدربعل خارج البلاد، حيث فرّ إلى روما ليطالب بحقه الشرعي في حكم البلاد. حينها أعلنت روما أن بلاد النوميديين تابعة لروما وأن ملوك النوميديين ليسوا سوى مكلفين بإدارة الحكم نيابةً عن الرومان. لم يقبل يوغرتا بهذا الطرح ورفض تحكيم البرلمان الروماني الذي تحالف مع عدوه أدربعل، لكنه بالمقابل طلب تحكيم عشرة رجال من روما لفض النزاع. استطاع يوغرتا بمهارته وحكمته أن يكسب أنصاراً له من نبلاء روما، فكان الحل أن تدخّل مجلس الشيوخ في روما لتقسيم المملكة النوميدية بين المتناحرين. وفعلاً تم تقسيم المملكة إلى جزئين: جزء شمالي شرقي يضم الموانئ والبنايات العظيمة لأدربعل وجزء جنوبي غربي قريب من بلاد الموريين بالمغرب الأقصى غني بمحاصيله وثرواته الطبيعية ليوغرتا. ويظهر أن يوغرتا لم يعجبه الحل الروماني، لذا ظل يتحين الفرصة إلى أن استقر رأيه على مهاجمة القسنطينة عاصمة ابن عمه أدربعل. أرسل هذا الأخير رسله مستنجداً بحكام روما الذين أرسلوا بدورهم سفراء من درجة عالية إلى يوغرتا يعرضون عليه الصلح، لكن يوغرتا قرر عدم رفع حصاره عن عاصمة ابن عمه، بل تمادى إلى حفر الخنادق حولها ليسد جميع المنافذ. انتهى الحصار بضرب عنق أدربعل وتعذيب وقتل بعض التجار الإيطاليين بسبب مساندتهم للملك المقتول. وبذلك وحّد يوغرتا بلاد النوميديين من جديد كما كانت في عهد جده مسينيسا، لكن في المقابل نصب العداء لحكام روما بتحدي إرادتهم.

بعدما استفرد يوغرتا بحكم نوميديا لوقت قصير، أعلن البرلمان الروماني عن وحدته المقدسة لمواجهة الخطر الأمازيغي بشمال أفريقيا. وفي سنة ١١١ قبل الميلاد أرسلت روما جيوشها إلى بلاد نوميديا. وبشيء من الحكمة تركهم يوغرتا يتقدمون داخل بلاده، ثم اشترى ذمة قواد الجيش وأعلن الصلح ليجنّب شعبه ويلات الحرب. لكن بعد أشهر من الهدنة عادت الأصوات في روما تطالب بالقصاص من يوغرتا المتمرد. تحالف يوغرتا مع الحزب الشعبي بروما وضحّى بمجموعة من

النبلاء الأمازيغ لمحاكمتهم في قضية تعذيب الإيطاليين الذين قُتلوا حين حاصر عاصمة ابن عمه وقتله. إلا أن كل هذا لم يحل دون البحث عن طريقة لتأديب يوغرتا بسبب تحديه إرادة روما العظمى. اقترح الرومان لحكم بلاد البربر ''مسيفا''، وهو حفيد آخر لمسينيسا كان لاجئاً في روما بعد مقتل عمه الملك أدربعل. أخبر يوغرتا من قبل أصدقائه بمحاولة البرلمان الروماني تنحيته عن العرش، فلم يكن منه إلا أن تسلل إلى روما وأرسل من يقتل مسيفا في قلب العاصمة الرومانية قبل أن تقوى شوكته. غادر يوغرتا روما على التو مردداً عبارته الشهيرة: ''روما، أيتها المدينة المعروضة للبيع، فلتبيدي إذا وجدتِ من يشتريكِ''.

وفي سنة ١١٠ قبل الميلاد عادت معالم الحرب للظهور بين روما من جهة والنوميديين من جهة أخرى على الأرض الإفريقية. طوّق أكليد يوغرتا جيوش روما وألحق بهم شر هزيمة قرب مدينة قالمة في المعركة الشهيرة بواقعة سوتول. وفي عام ١٠٧ قبل الميلاد نادى يوغرتا بالثورة ضد الرومان، وكاد الأمر يفلت من يد روما وأوشك أن يذهب كل نفوذ لها في الشمال الأفريقي لولا أن ماريوس، القائد الروماني، أرسل أربع فرق من المشاة بزعامة القائد الشهير سيلا للقضاء على يوغرتا. اشتعلت الحرب سنة كاملة وجد يوغرتا نفسه خلالها في وضع يشابه وضع قرطاجة قبل تقويضها، وهكذا لجأ إلى صهره باكوس في طنجة الذي أمدّه أول الأمر بما هو في حاجة إليه من جند وعتاد. لكن ذلك لم يغير حقيقة التفوق الروماني، وجاءت رسل القائد الروماني سيلا إلى طنجة تطلب من الملك الموري تسليم يوغرتا. ظل يوغرتا يصارع وحيداً ليُهزم أخيراً ويساق مكبّلاً بالسلاسل إلى روما بعد أن نقض حليفه بوكوس الأول ملك موريتانيا الطنجية التحالف الذي أقاماه قبل ذلك. وتقدم القائد يوغرتا بسلاحه الكامل وشعارات الملك إلى الضباط الرومان في سنة ١٠٤ قبل الميلاد فاعتقلوه وأرسلوه إلى روما. وهكذا قُتِل يوغرتا النوميدي الذي يصفه البعض بـ''هنيبعل الأمازيغ''، وكان موته بشعا، إذ أن المكلفين بسجنه في روما جرّدوه من كل ملابسه وقطعوا حلمة أذنيه في جذب قوي لحلقات الذهب التي كان يتزين بها، ثم ألقوا به عارياً مضمّخا بالدماء إلى قعر زنزانته تحت الأرض. ظل يوغرتا يصارع ستة أيام الجوع والعذاب متعلقاً بخيط رهيف من أجل العيش، ثم قُتل خنقاً كما يحكي مؤرخو الرومان. وبموته دخلت المملكة الأمازيغية بشمال أفريقيا عهد الخضوع والتبعية الكاملة لروما.

٥– بوكوس الأول (Bocchus I): حاكم موريتانيا الطنجية

في الوقت الذي كانت قرطاجة تحترق وقد أحاط بها أعداؤها من كل جهة، كان المغاربة يحتفلون بتنصيب الملك بوكوس الأول في طنجة. ويوصف بوكوس بأنه كان داهيةً وصلباً في الوقت نفسه (الغربي، ١٩٧٣). ورث بوكوس الأول مملكته عن الزعيم باغا (Baga)، لكنه اغتنم فرصة انهزام يوغرتا أمام الجيوش الرومانية ليستولي على الجزء الغربي من مملكة المازيليين بالجزائر. وظل بوكوس وفياً لروما رغم الهزات العنيفة التي تعرض لها عرشه. وقد مارس هذا الملك البراغماتي سلطته المطلقة في حدود قدراته العسكرية مقارنةً بقوة روما، وفي حدود التعامل مع العصبيات القبلية الأمازيغية. كان له مجلس شورى من الأقارب والأصدقاء وبعض زعماء القبائل، وكان له ديوان للكتابة ولتدبير شؤون الجيش. وكان بوكوس الأول ينتقل بين عواصم عديدة، نذكر من بينها تينجي (طنجة) وسيكا وتامودا ووليلي. سكّ النقود باسمه وعيّن خمسة سفراء للاتصال مع روما وأسند قيادة العمليات العسكرية لابنه فوليكس (Volux).

توفي بوكوس الأول سنة ٧٠ ق.م، فانقسمت المملكة بين ابنيه إلى شطرين، حكم الشطر الأول بوكُوس الثاني، وحكم الشطر الثاني بوكَود. كلاهما كانا حليفين قويين للجنرال يوليوس قيصر. وحين قُتل يوليوس اختلف رأي الأخوين ليناصر بوكود الجنرال أنطونيو، زوج كليوبترا حاكمة الإسكندرية، ويتبع بوكوس الثاني أوكتافيوس حاكم روما. وفي سنة ٣٨ ق.م قتل بوكود ليستأثر أخوه بوكوس الثاني بالملك بعد أن انتصر أوكتافيوس على أنطونيو. وخلال تلك الاضطرابات كان الرومان يعززون نفوذهم في بلاد المغرب حتى فرضوا سيطرتهم وقسّموا المغرب الكبير الى ثلاث ولايات هي: أفريقيا ونوميديا وموريتانيا. ولمّا وضع الإمبراطور كلوديوس بلاد المغرب الكبير تحت الحكم الروماني المباشر أطلقوا عليها اسم موريتانيا وقسموها الى موريتانيا قيصرية، وتشمل الجزء الشمالي من أرض الجزائر وتونس، وموريتانيا الطنجية، وتشمل الأراضي الواقعة بين وادي ملوية والبحر المتوسط. ولمّا توفي بوكوس الثاني سنة ٣٣ ق.م لم يترك عقباً يخلفه فولّت روما جوبا الثاني على موريتانيا الطنجية سنة٢٥ ق.م بعد أن تعهّدت به إثر وفاة أبيه جوبا الأول وسهرت على تربيته.

٦– جوبا الأول (Juba I): ملك المازيلي الذي انتحر

كانت لجوبا الأول، ملك المازيلي الذي حكم المغرب الأوسط (الجزائر)، سلطة وجاه. وخلال فترة حكمه تميّز لباسه بارتداء البرانس ذات اللون الأحمر. درس جوبا الأول في روما وأخذ حظاً واسعاً

من المعرفة والعلم. كما كان يطمع خلال فترة ملكه في توسيع مملكته لتضم كل أراضي الأمازيغ، لكن مراهنته باءت بالفشل. وحين نشبت الحرب المعروفة بين القائدين الرومانيين يوليوس قيصر وبومبيوس، حالف جوبا الأول بومبيوس، بينما حالف الملكان بوكود الثاني وبوكوس الثاني قيصر. وبعد حروب، وأخذ ورد، وكرّ فرّ، كان النصر من حظ القيصريين. لذا وجد جوبا الأول نفسه معزولاً عن جيشه وعن شعبه وعن مملكته، فلم يتحمل الأمر وقرر الانتحار سنة ٤٦ ق.م بطريقته الخاصة، إذ إنه توجّه إلى أحد قادة الرومان الأقوياء المدجج بالسلاح وراح يتحرش به إلى أن هيّجه وأثار غضبه، فلم يكن من القائد إلا أن ضرب عنق الملك المهزوم. خلّف جوبا الأول ابناً لم يتجاوز الخامسة من العمر أسره يوليوس قيصر وحمله معه إلى روما حيث نشأ في كنف البلاط، حيث تلقى جوبا الثاني تربيةً رومانية وتعلم اللاتينية واليونانية ليصبح عالماً كبيراً، ثم بعد ذلك ستهديه روما مُلْك بلاد الموريين بموريتانيا الطنجية وتزوّجه كليوبترا سيليني سليلة البطالمة الإسكندريين.

٧– جوبا الثاني (Juba II): ملك الموريين، المفكِّر العالِم

أصبح الأمازيغي جوبا الثاني ملكاً في العام ٢٥ ق.م بتفويض من روما على مناطق المغرب ومناطق من غرب الجزائر، فضُربت النقود باسمه وباسم الملكة كليوباترا سيليني. اتّخذ جوبا الثاني من شرشال الشاطئية التي كان قد بناها الفينيقيون عاصمةً له سمّاها سيزاريا تكريماً للإمبراطور الروماني (قيصر)، وفي شمال المغرب بنى قصراً للراحة والاستجمام، قد تكون بقاياه مازالت صامدة حتى الآن في منطقة وليلي. ازدهرت تجارة البربر مع الشمال الروماني في زمن ملكهم جوبا الثاني. كان البربر يصدرون نقاعة ملح يحفظ فيها اللحم والسمك والخضروات (تسمّى الكاروم)، بالإضافة إلى تصدير الأرجوان، تلك المادة التي تستخرج من بعض الصدفات البحرية وتُستعمل لتلوين الأقمشة. ورغم أن الأرجوان عُرف من قبل عند الفينيقيين في صور بلبنان وفي قرطاجة بتونس، إلا أن الأرجوان الذي أمر جوبا الثاني باستخراجه من موكادور (مدينة الصويرة المغربية) وجزر الكناري كانت له مميزات خاصة وجودة عالية. وليس عبثاً أن يذكر كتّابٌ كبار، من أمثال الروماني هوراس واللاتيني أوفيد والإغريقي بلين، في كتبهم أرجوان الأمازيغ الموريين المتميز الذي كان يستخرج من سواحل المحيط الأطلسي.

قدم جوبا الثاني خلال ملكه، الذي دام ٤٨ سنة، مظاهر عديدة للحضارتين الرومانية واليونانية في أفريقيا الشمالية. ذاق الأمازيغ خلال تلك الفترة حلاوة التجارة وتقنية الصناعات اليدوية، وسُرُّوا

كثيراً بحرث الأراضي وجني المحاصيل المتنوعة. وهكذا نعمت بلادهم بالسلام، وحالفهم النجاح والرخاء الاقتصادي بسبب المعاهدات التي عقدوها والارتباطات الدولية التي حصلوا عليها. وقد جعل جوبا الثاني عاصمته الرئيسية في شرشرال وعاصمة ثانية في وليلي، وانصرف إلى الفن والتأليف وقراءة الآداب اليونانية بعد أن وطد أسس ملكه. ومن أهم الآثار التي خلفها جوبا الثاني للمغرب مواقع بموكادور، وهي جزيرة صغيرة قرب مدينة الصويرة عرفت ازدهاراً مهماً إذ كانت تتواجد بها مواقع لاستخراج الصباغ الأرجوانية من أصداف بحرية. كما تعد منطقة كوطا، جنوب مدينة طنجة، مجمعاً صناعياً اختص بتمليح السمك، وهو يتكون من عدة أحواض يصل عمقها إلى مترين. وقد عرف هذا النشاط في عهد الملك جوبا الثاني وابنه بطوليمي تطوراً كبيراً أدى إلى ظهور صناعات أخرى كاستخراج مادة الملح. كذلك، من المعالم التي تمتاز بها مدينة ليكسوس، شمال المغرب، المسرح الدائري، وكان دوره الترفيه عن عمال تمليح السمك في تلك الحقبة.

في عهد بطوليمي، خَلَفْ جوبا الثاني، تم التوحيد النهائي للقبائل الأمازيغية تحت سلطة روما. كما عرفت دولته في عهده تركيز الاقتصاد وظهور مجموعات أمازيغية تدور في فلك الدولة الرومانية تتمتع بتسيير شبه مستقل. وفي سنة ٤٠ ميلادية استدرج الروماني كاليغولا الأحمق (Caluculla) ابن خالته بطوليمي أو بطليموس الأمازيغي (أمه كما أسلفنا هي كليوبترا سيليني) إلى حضور احتفالات رسمية بمدينة ليون ببلاد الغال حيث أمر باغتياله، لا لسبب إلا لأن بطوليمي كان في كامل أناقته يرتدي برنساً ملوناً بلون الأرجوان المستخرج من صدف شواطئ المغرب الأطلسية. وبموت بطوليمي الأمازيغي الأصل انقرضت الممالك الأمازيغية القديمة لتبدأ فترة الثورات الشعبية وبروز عدد من الزعماء البربر المناهضين للتواجد الروماني بالمغرب الكبير. وهكذا حمل مشعل الثورة ضد الرومان الفارس أيدمان (Aedemon) لمدة أربع سنوات في محاولة للثأر لملكه بطوليمي المغتال غدراً ببلاد الغال. وتميزت ثورات البربر حينها بعنف أدى إلى هدم مركز تامودا كلياً وليكسوس ووليلي جزئياً، ولم تسلم سوى مدينة طنجة.

٨ـ الفارس تكفاريناس (Takferinas): الثائر على الرومان

تجددت مقاومة القبائل الأمازيغية عند بداية القرن الأول الميلادي، تزعمها فرسان أمازيغ كانوا ضمن الجيش الروماني، ومن أشهرها الثورة التي قادها سنة ١٧م تكفاريناس ضد القوات الرومانية في نوميديا مستغلاً في ذلك الطبيعة الصحراوية للمناطق الموجودة خارج "الليمس"، أي الحد الذي

يفصل الرومان عن البربر. وقد استمرت ثورة تكفاريناس مدةً طويلة قبل أن يقبض عليه الرومان ويعدموه ويُدفن في لبدة. إلا أن تكفاريناس تمكن قبل ذلك من أن يلحق عدة هزائم بالقوات الرومانية صنع فيها ملاحم كبرى بانتصاره الساحق على أربعة قادة رومانيين متتالين. وفي سنة ٤٠م قامت ثورة أخرى في موريتانيا الطنجية تمكن البربر أثناءها من الاستيلاء على المراكز الرومانية، واضطر الإمبراطور إلى إرسال تعزيزات عسكرية لإخماد الثورة والمساعدة على نشر الديانة المسيحية. وقد اعتنق العديد من الأمازيغ حينها الديانة المسيحية واتخذوها أساساً للدعوة إلى نبذ التفرقة واللامساواة والتمييز بين الطبقات المكونة للمجتمع الروماني وسكان مستعمراتهم، فكان الدين المسيحي أداة وجّهها الأمازيغ ضد ناشريه من الرومان. وقد أدّى ذلك إلى انفصال الكنيسة الأفريقية عن مثيلتها في روما، وبذلك بدأت مرحلة الدعوة الدوناتية (مذهب الكثلكة) التي شكّلت الأساس للكنيسة الأفريقية مقابل الكنيسة الرومانية.

٩– سبتيميوس سفيروس (Lucius Septimius Severus): حاكم روما

بعد أن قضى الرومان على الفينيقيين ودخلوا عاصمتهم قرطاجة منحوا القادة والشيوخ المحليين الأمازيغيين الذين قدّموا الطاعة والولاء للإمبراطور الروماني منزلةً خاصة باعتبارهم مواطنين رومانيين. هكذا أصبح بإمكان هؤلاء القادة والرؤساء البربر أن يتبوأوا مناصب رفيعة في السياسة وفي المناصب الاجتماعية والعسكرية داخل المدن الأفريقية التي تم تطويرها وإنماؤها، بل داخل روما نفسها. من هؤلاء نذكر الأمازيغي سبتيموس سفيروس. ولد سبتيموس سفيروس في ١١ نيسان/أبريل من عام ١٤٥م لأبوين أمازيغيين في مدينة لبدة بغرب ليبيا، وهو من عائلة ليبية عريقة، وكان جده فارساً غنياً. حين أتمّ تعليمه في روما، وحصل على شهادة في الحقوق، التحق بالجيش. لم يلبث سبتيموس سفيروس أن أصبح قائداً لإحدى الكتائب الروماينة ليرتقي بعد ذلك إلى أعلى المناصب، إذ أصبح قائداً عسكرياً سنة ١٧٢م في إقليم بإسبانيا، ثم حاكماً لمنطقة بأوربا الوسطى تابعة لروما. وفي عام ١٧٩م عُيّن قائداً للقوات الرومانية المرابطة في سوريا. وكان أحد أقاربه مسؤولاً في الولاية الرومانية هو من ساعده في دخول المجلس الروماني كسيناتور ومؤيد للإمبراطور ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius.

بعد موت الإمبراطور الروماني كومودوس مقتولاً، حدثت في أوائل سنة ١٩٢م انقسامات خطيرة بين كبار رجال الدولة الرومانية حول من سيتولى السلطة ويتبوأ عرش روما. وفي هذه الأثناء حصلت الحرب الأهلية الرومانية بعد ادّعاء دسديوس جوليانوس في روما خلافة الإمبراطور المغتال بدعم من الحرس الإمبراطوري في روما، لكن سلطة جوليانوس لم تتجاوز حدود إيطاليا. وقد وُجد أكثر من مدّعٍ لمنصب الإمبراطور، لذا أمر سبتيموس قواته بالتوجه إلى روما. لم يواجه أي مقاومة في تقدمه إلى شمال إيطاليا، ثم هزم مؤيدي جوليانوس، فتحول ولاء الحرس الإمبراطوري إلى سيفروس وتم إعلان ديدوس جوليانوس عدواً للشعب وقتله، ثم دخل سيفروس روما دون قتال. وبذلك تمّ تنصيب الأمازيغي سبتيموس إمبراطوراً لروما في ٩ نيسان/أبريل ١٩٣م بعد أن ثأر للإمبراطور المقتول وتخلّص من أعدائه. ثم جلب أفواجاً من الأمازيغ الأشداء ليعوضوا الحرس الإمبراطوري داخل قصر روما.

مع كل هذا الجهد الذي قام به سبتيموس إلا أن الحرب الأهلية لم تنته حيث وضع حاكم إقليمي آخر عينه على العرش الروماني وهو حاكم سوريا بيسنيوس Pescennius الذي استولى على المنطقة الشرقية للإمبراطورية واتخذ من بيزنطية Byzantium قاعدةً لعملياته ضد القوات الغربية بقيادة سفيروس. وحيث أن بيسنيوس لم يستطع التقدم بقواته ناحية أوروبا فإن القتال انتقل إلى آسيا. إثر ذلك فرّ بيسنيوس في بداية كانون الثاني/يناير ١٩٤م إلى الجنوب ووقعت آسيا وبيثنيا (إيران) تحت حكم سفيروس ثم تلتهما مصر وفي نهاية فصل الربيع تمت الهزيمة الساحقة وقُتل بيسنيوس. وفى عام ١٩٦م زار الإمبراطور سفيروس وزوجته مصر ليكسب ودّ أهلها بإصلاح أحوالهم وتوحيد نظم البلاد الإدارية والمالية مع سائر أنظمة الإمبراطورية الرومانية. ويمكننا أن نقول إن سفيروس استطاع أن يحكم روما في أوج عظمتها وقمة قوتها، إذ كانت تهيمن على ثلاثة أرباع العالم المعروف آنذاك، وبلغ نفوذها أقصى مداه، إذ كانت تبسط سيطرتها على رقعة كبيرة من الأرض تمتد شرقاً إلى نهر الفرات وغرباً إلى إنكلترا.

بذل سبتيموس الجهود الكبيرة في سبيل الإصلاح وتحسين أوضاع الجيش والقضاء على الفتن الأهلية وإزالة مساوئها، ووجّه العناية إلى الولايات فأقام فيها كثيراً من المنشآت والأبنية العامة والحمامات وسواها، وجعل الخدمة العسكرية إجبارية على كل الولايات عدا أهل إيطاليا، ثم قام بحلِّ الجيش الإمبراطوري وأحدث حرساً جديداً أعضاؤه من سائر الولايات – بما فيهم الأمازيغ – بعد أن كان هذا الحرس إيطاليّاً فقط. لقد أعاد سبتيموس لعرش روما مكانته، وخلص الإمبراطورية من تركة فساد متراكم من استبداد كاليغولا وبلاهة كلوديوس وجنون نيرون وطغيان أنطونيو.

تعرّف سفيروس إلى "جوليا دومنا"، أميرة سوريا وابنة كاهن مدينة حمص الأعظم، في حفل لمعبد إله الشمس إيلا كابل، فتتزوجها لترافقه في أسفاره وتشاركه الحكم لتصبح واحدة من أقوى الشخصيات في الإمبراطورية الرومانية من عام ١٩٣م إلى عام٢١٧ م. كانت هي من تسيّر الإمبراطورية العظيمة لمّا كان الإمبراطور سبتيموس سفيروس، زوجها، يترك العرش ليحارب المنافسين ويقضي على الثوار ويطارد ويخمد الفتن في إمبراطورية روما العظيمة. وبالفعل برهنت جوليا دومنا للشعب الروماني أنها قادرة على تسلّم القيادة والإدارة. وقد عُرف عنها كذلك اهتمامها بالعلوم والفلسفة والفنون، لذا فقد استقدمت عدداً كبيراً من رجالات الفن والعلم إلى بلاط قصرها بروما.

في سنة ٢١١م اصطحب سفيروس ابنه كركلا (caracalla) إلى إنجلترا التي كان يعيش أهلها في حالة من التخلف كي يُسكت بعض الفتن فيها ويُعَوِّدَ ابنه على حياة الخشونة الريفية بعد أن نشأ في قصور روما وترفها. ورغم شيخوخته وكبر سنة وإصابته بداء النقرس إلا أن ذلك لم يمنعه من تسجيل انتصارات هناك. وهو على تلك الحال استطاع أن يصل إلى "كلدونيا" وانتصر على الاسكتلنديين في عدة وقائع، ثم عاد إلى بريطانيا. وهناك بمدينة يورك كان على موعد مع الموت سنة ٢١١م. خلف سبتيموس على عرش الإمبراطورية الرومانية كركلا، أكبر أبنائه، ومعه أخوه جيتا الأصغر كشريكين في حكم الدولة الرومانية. لكن كركلا أصدر أمره بقتل أخيه ليستأثر بالحكم وحده، ويشاع أنه قتل عشرين ألف شخص آخرين من الذين احتجوا على فعلته الشنيعة بقتله أخيه.

١٠- تينهينان الفيلالية (Tin Hinan): ملكة الطوارق، ناصبة الخيام، صاحبة الناقة البيضاء

يتسمّى الطوارق "تماشق" أو "تمازغ" وهي نفسها عند غيرهم من البربر "أمازيغ". ويتوزع الطوارق على شكل قبائل صغيرة كانت إلى وقت غير بعيد كثيرة التناحر فيما بينها يغزو بعضها بعضاً لأدنى الأسباب، وغالباً ما كان السبب نزاعاً على مناطق الرعي أو أماكن وجود المياه. كما ينقسم المجتمع الطوارقي إلى طبقات: المحاربون، ورجال الدين (الطبقة الراقية)، الحرفيون (الطبقة المتوسطة)، الخدم (الطبقة الدنيا). ويميز الفرد بانتمائه لطبقة ما بطول العمامة التي يضعها على رأسه، فالمحاربون ورجال الدين يلفون على رؤوسهم عمائم يتجاوز طولها الثمانية أمتار، والحرفيون خمسة أمتار، بينما لا يتجاوز طول عمائم الخدم ثلاثة أمتار. والنبلاء في قبائل الطوارق

لا يذبحون الذبائح لأن هذا عمل مهين عند البربر لا يليق إلا بالعبيد. ويحكى أن الطوارق خلال حفلاتهم لا يذبحون الجمال، بل يقتلونها طعناً بالسيوف والرماح.

درج المؤرخون والرحالة العرب القدامى على تسمية الطوارق بالملثمين والسبب الأساس في ذلك هو محافظتهم الشديدة على هذه العادة منذ فجر التاريخ. وتعود الأساطير في قصة اللثام لتُرجع سبب ذلك إلى أن أهقار وهو ابن ملكتهم تينهينان – والذي تُعرف جبال الجنوب الجزائري اليوم باسمه – الذي فرّ يوماً هارباً بجيشه من أرض المعركة، وفي طريقه إلى العودة تنبّه إلى أن ما قام به لا يليق بمقام قائد جيش وابن ملكة، فبقي مرابطاً بجيشه على مشارف الديار مدة شهر كامل لا يستطيع الدخول مخافة ملامة النسوة له. ولما طال بهم الحال ونفد ما معهم من زاد وجدوا أنفسهم مجبرين على دخول الديار، فما كان من القائد سوى أن يغطّي وجهه الذي يحمل ملامح العار وكذلك فعل بقية جنده، وبقوا على تلك الحال طيلة حياتهم، وكذلك فعل من جاء بعدهم، حتى أصبح الأمر تقليداً مفروضاً إلى يومنا هذا.

وحسب الروايات التي تناقلتها الأجيال أباً عن جد وحملتها كتب التاريخ فإن تينهينان هي ملكة قبائل الطوارق، وقد حكمت في القرن الخامس الميلادي، وإليها يستند هؤلاء القوم في تنظيمهم الاجتماعي الذي يستمد السلطة – حتى الآن – من حكمة المرأة. تينهينان ملكة متفردة، فالأساطير والآثار تثبت أنها كانت تدافع عن أرضها وشعبها ضد الغزاة الآخرين من قبائل النيجر وموريتانيا الحالية وتشاد. وقد عُرف عنها أنها صاحبة حكمة ودهاء، نصبت ملكة بسبب إمكانياتها وقدراتها الخارقة للعادة. وتقول الروايات التاريخية إن اسم تينهينان مركّب من جزأين (تين + هينان) وهي لفظ من لهجة "التماهاك" القديمة وتعني بالعربية (ناصبة الخيام)، لذلك رجّح المؤرخون أن تكون كثيرة السفر والترحال. قدمت تينهينان ذات زمن من منطقة "تافيلالت" الواقعة بالجنوب الشرقي للمغرب الأقصى ممتطيةً راحلة ناقتها البيضاء برفقة خادمتها "تاكامات" وعددٍ من العبيد لتستقر في منطقة "الأهقار" الجبلية على نحو ألفي كلم جنوب العاصمة الجزائرية بعد رحلة متعبة وشاقة ومليئة بالمخاطر. و"الأهقار" كان يسكنها قومٌ معروفون بخشونة طباعهم وخصوصية لباسهم المتشكّل من جلود الحيوانات، وبعبادتهم للطبيعة. كما عُرفوا أيضاً بالتحدث بلغة لها خط يسمّى "التيفناغ" تعبّر عن أصولهم المنحدرة من ليبيا. ولا يزال الطوارق حتى اليوم يستخدمون هذه الحروف التي توارثوها أباً عن جد في تزيين قطع صناعاتهم اليدوية.

وتقول الروايات المدونة إن قافلة الملكة تينهينان طال بها السفر ونفد زادها وكاد أفرادها أن يهلكوا من الجوع. وفي لحظات صعبة تفطنت الخادمة الخاصة "تاكامات" لقوافل النمل على

طريقها وهي تحمل حبات القمح والشعير، فأمرت تينهينان بمواصلة الطريق في المنحى المعاكس لمنحى سير قوافل النمل إلى أن وصلت إلى الأهقار فوجدت هناك الأمن والماء وكل مقومات الحياة، فشيّدت صرح مملكتها وأدخلت تقاليد جديدة على المجتمع منها على الخصوص العمل وتخزين الخيرات لوقت الشدة والاستعداد الدائم لقهر الغزاة القادمين من الشرق. تمكنت تينهينان بحكمتها وخبرتها، وأيضاً بأخلاقها النبيلة، من كسب ودّ هؤلاء السكان حتى اعتمدوا نهجها في الحياة واعتمدت هي تقاليدهم، فشيدت مملكة كبيرة مزدهرة. وفي دراسة علمية حديثة على هيكل عظمي نُسب للملكة تينهينان تمّ اكتشاف العديد من الأسرار من بينها أنها ربما كانت عرجاء، وأكدت بذلك ما ورد في كتاب ابن خلدون عن تاريخ البربر الذي يشير إلى وجود امرأة عرجاء هي سلف لكل الرجال الملثمين (يقصد الطوارق). وقد أثبتت التحليلات أن الهيكل العظمي لتينهينان يعود للقرن الخامس الميلادي.

١١– كسيلة البربري (Aksel): مقاوم الفاتحين العرب

كان رجل من الأمازيغ اسمه كسيلة زعيماً لقبائل أوربة. ويقول مؤرخ البربر ابن خلدون:

> كانت البطون التي فيها الكثرة والغلب من البربر البتر كلهم لعهد الفتح أوربة وهوارة وصنهاجة من البرانس ونفوسة وزناتة ومطغرة ونفزاوة من البتر، وكان التقدم لعهد الفتح لأوربة بما كانوا أكثر عدداً وأشد بأساً وقوة. وهم من ولد أورب بن برنس، وهم بطون كثيرة... وكان أميرهم بين يدي الفتح سكرديد بن زوغي بن بارزت بن برزيات ولي عليهم مدة ثلاثٍ وسبعين سنة، وأدرك الفتح الإسلامي ومات... وولي عليهم من بعده كسيلة بن لزم الأوربي، فكان أميراً على البرانس كلهم. ولما نزل أبو المهاجر تلمسان سنة خمسٍ وخمسين كان كسيلة بن لزم مرتاداً بالمغرب الأقصى في جموعه من أوربة وغيرهم، فظفر به أبو المهاجر وعرض عليه الإسلام فأسلم، واستنقذه وأحسن إليه وصحبه. **(تاريخ ابن خلدون)**

انزاح كسيلة حليفاً لأبي المهاجر لما رأى من قوة المسلمين وعفوهم عند المقدرة، لكن عودة عقبة بن نافع مجدداً لقيادة الجيوش المسلمة بأفريقيا خلقت شكوكاً لدى كسيلة بخصوص الهدف من فتح الشمال الأفريقي: أهو نشر الإسلام بين السكان الأمازيغ أم هو تسلّط وتجبّر للحصول على الثروات والاستبداد بالحكم؟ وفي سنة ٦٨١م سجن عقبة كسيلة البربري وعامله بإذلال ولم يحفظ له مكانة كما أوصى بذلك نبي الإسلام محمد عليه السلام. وفي ذلك يقول ابن خلدون:

> وكان عقبة في غزاته يستهين كسيلة ويستخفّ به وهو في اعتقاله. وأمره يوماً بسلخ شاة بين يديه فدفعها إلى غلمانه، وأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه، وانتهره، فقام إليها كسيلة مغضباً. وجعل كلما دسّ يده في الشاة يمسح بلحيته، والعرب يقولون: ما هذا يا بربري؟ فيقول: هذا جيد للشعر، فيقول لهم شيخ منهم: إن البربري

يتوعّدكم. وبلغ ذلك أبا المهاجر فنهى عقبة عنه وقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب، وأنت تعمد إلى رجل جبار في قومه بدار عزة قريب عهد بالشرك فتفسد قلبه، وأشار عليه بأن يوثق منه وخَوَّفَهُ فتكه، فتهاون عقبة بقوله. (**تاريخ ابن خلدون**)

ويؤكّد المؤرخون أن أقصى حدود الإهانة التي فرضها عقبة بن نافع على كسيلة البربري تجلّت في أمره بذبح الشياه وسلخها وتقديمها للجنود العرب. ذلك أن ذبح الذبائح يعدّ أمراً مهيناً لنبلاء البربر وزعمائهم، وقد كانوا يستعيضون عن ذلك بقتلها بالسيوف والرماح. لقد كان الجزارون البربر قديماً يشكّلون طبقة تعدّ من الخدم تسكن خارج المداشر. ويسمّى الخدم عند الطوارق "إيكلان" ليس لأنهم عبيد استقدموا من الجنوب بل لأنهم يحترفون الجزارة.

ثم عاد عقبة أدراجه إلى القيروان، وهو يَجِدُّ في سيره، وكان القدر يسوقه، والخطر يلاحقه، ولم يكد يصل إلى تهودة (بسكرة بالجزائر) حتى انقضت عليه جموع البربر أصحاب كسيلة، وكان من سوء الطالع أن صرف عقبة العساكر إلى القيروان وبقي في خفّ من الجند. ويتابع ابن خلدون:

فلما قفل – عقبة – عن غزاته وانتهى إلى طبنة صرف العساكر إلى القيروان أفواجاً ثقة بما دوّخ من البلاد وأذلّ من البربر حتى بقي في قليلٍ من الناس. وسار إلى تهودة أوبادس لينزل بها الحامية، فلما نظر إليه الفرنجة طمعوا فيه وراسلوا كسيلة بن لزم ودلّوه على الفرصة فيه فانتهزها، وراسل بني عمه ومن تبعهم من البربر، واتبعوا عقبة وأصحابه... حتى إذا غشوه بتهودة ترجّل القوم وكسروا أجفان سيوفهم، ونزل الصبر واستلحم عقبة وأصحابه... ولم يفلت منهم أحد، وكانوا زهاء ثلاث مائة من كبار التابعين استشهدوا في مصرع واحد... (**تاريخ ابن خلدون**)

كان حينها زهير بن قيس البلوي بالقيروان، وبلغه الخبر فخرج هارباً وارتحل بالمسلمين ونزل برقة وأقام فيها ينتظر المدد من الخليفة. واجتمع إلى كسيلة جميع أهل المغرب من البربر والفرنجة، وزحف إلى القيروان. وأقام أميراً على أفريقيا خمس سنين. وكان زهير بن قيس مقيماً ببرقة مند مهلك عقبة فبعث إليه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بالمدد وولاّه حرب البربر والثأر بدم عقبة فزحف إليها في آلاف من المسلمين. من جهته، جهّز كسيلة حصانه، وحمل ترسه وسيفه، وأعدّ العدة صحبة جنده، ثم ذهب لملاقاة أعدائه. لقد كان كسيلة يردد دائماً أن أرضه تنوء بحمل المتسلطين وترفض من يسلب رزق أبنائها ويمرّغ كبرياءهم ويستحيي نساءهم. مضى كسيلة صوب الشرق؛ إلى ما وراء جبال الأوراس، والتقى الجيشان بنواحي القيروان واشتد القتال بين الفريقين إلى أن انهزم البربر سنة ٦٨٦م وقُتِل كسيلة وما لا يحصى من البربر، واتبعهم العرب إلى نهر ملوية بالمغرب الأقصى. وذُلَّ البربر ولجأوا إلى القلاع والحصون، واستقروا بمدينة وليلي بالمغرب. والراجح أن كسيلة قضى نحبه قرب قلعة "ممش" مع خيرة جنده وصفوة صحبه.

١٢– دهيا (Dahiya) الملقّبة بالعرافة تحمل مشعل المقاومة الأمازيغية

بعد موت الزعيم كسيلة قامت في جبال الأوراس شوكة ملكة اسمها دهيا البربرية الملقبة بالكاهنة. يقول ابن خلدون:

> كانت زناتة أعظم قبائل البربر وأكثرها جموعاً وبطوناً وكان موطن جراوة منهم بجبل أوراس وهم ولد كراو بن الديرت بن جانا. وكانت رياستهم للكاهنة دهيا بنت تابنة بن نيقان بن باورا بن مصكسري بن أفرد بن وصيلا بن جراو. (**تاريخ ابن خلدون**)

وقد تنازعت الأقوام اسم هذه الزعيمة الشجاعة، لحد أن بعض الكتاب اليهود سموها ديبورا وهو اسم يهودي معروف أو كهينا نسبةً إلى اسم الكوهن، أما الكتاب العرب فسيلصقون بها جميع الصفات المحطة للإنسان بسبب مواجهتها للفاتحين المسلمين وعدم قبولها بالتسليم في أراضي أجدادها البربر. ويضيف ابن خلدون:

> قال هاني بن بكور الضريسي: ملكت عليهم (أي دهيا) خمساً وثلاثين سنة وعاشت مائة وسبعاً وعشرين سنة. وكان قتل عقبة بن نافع في البسيط قبلة جبل أوراس بإغرائها برابرة تهودا عليه وكان المسلمون يعرفون ذلك منها. فلما انقضى جمع البربر وقتل كسيلة زحفوا إلى هذه الكاهنة بمعتصمها من جبل أوراس وقد ضوي إليها بنو يفرن ومن كان بإفريقية من قبائل زناتة وسائر البتر فلقيتهم بالبسيط أمام جبلها. وانهزم المسلمون واتّبعت آثارهم في جموعها حتى أخرجتهم من إفريقية. (**تاريخ ابن خلدون**)

وقد جاء في كتاب **تاريخ ابن خلدون** أن حسان بن النعمان الذي أرسله الأمويون على رأس مجموعة من الجنود، قال:

> دلوني على أعظم من بقي من ملوك إفريقية، فدلوه على دهيا. وقد اجتمع حولها البربر بعد قتل كسيلة، فسأل أهل إفريقية عنها فعظموا محلها وقالوا له: إن قتلتها لم تختلف البربر بعدها عليك. فسار إليها، فلما قاربها هدمت حصن بغاية ظناً منها أنه يريد الحصن، فلم يعرج حسان على ذلك وسار إليها، فالتقوا على نهر نيني واقتتلوا أشد قتال رآه الناس واستبسلت دهيا أيما استبسال، فانهزم المسلمون وقتل منهم خلقٌ كثير، وأسر جماعة كثيرة أطلقتهم الكاهنة سوى خالد بن يزيد القيسي، الذي اتخذته ولداً بعد أن أرضعته من حليب ثديها.
> وقد أورد ابن الرفيق وصفاً عجيباً تبنّاه المؤرخون بعده، قال: "وأن الكاهنة قالت لخالد: 'ما رأيت في الرجال أجمل منك، ولا أشجع، وأنا أريد أن أرضعك، فتكون أخاً لولدي'، فقال لها: 'وكيف يكون ذلك، وقد ذهب الرضاع منك؟'، فقالت: 'إنا جماعة البربر لنا رضاع إذا فعلناه نتوارث به'، فعمدت إلى دقيق الشعير، فتلته بزيت، وجعلته على ثدييها، ودعت ولديها، وقالت لهما: 'كلا معه على ثديي'، وقالت لهم: 'إنكم قد صرتم إخوة'.

أرسل حسان بكتاب يحمله رسول منه سراً إلى خالد بن يزيد القيسي لمّا كان عند الملكة العرافة يستعلم منه الأمور، فكتب إليه خالد جوابه في رقعة يُعَرِّفُهُ تفرق البربر ويأمره بالسرعة، وجعل

الرقعة في خبزة، وعاد الرسول، فخرجت الملكة دهيا ناشرةً شعرها تولول وتقول: "ذهب ملكهم فيما يأكل الناس يا أهل بربر". فطُلب الرسول فلم يوجد، فوصل إلى حسان وقد احترق الكتاب بالنار، فعاد إلى خالد وكتب إليه بما كتب أولاً وأودعه قربوس السرج، فسار حسان، فلما علمت ملكة البربر بمسيره إليها قالت: "إن العرب يريدون البلاد والذهب والفضة، ونحن إنما نريد المزارع والمراعي، ولا أرى إلا أن أخرّب إفريقية حتى ييأسوا منها". وفرقت أصحابها ليخربوا البلاد، فخربوها وهدموا الحصون. علمت الملكة دهيا أن المدّ والزحف الإسلامي لا رادّ له هذه المرة، وإن ذلك لواضح عندما سألت أبناءها: "ماذا ترون في السماء؟" قالوا: "نرى سحاباً أحمر"، فقالت: "بل هذا وهج خيول العرب". حين أيقنت دهيا بالهزيمة أحضرت ولديها وخالداً بن يزيد القيسي أخاهم في الرضاع وقالت لهم: "إنني مقتولة لا محالة فامضوا إلى حسان وخذوا لأنفسكم منه أماناً، فإنني أرى أن أحد ولدي سينصر به المسلمون". فساروا إليه وبقوا معه. انتظر حسّان بن النعمان، الذي كان يتولى قيادة جيوش المسلمين، ثم هاجمها مجدداً. التقى الجمعان واقتتلا واشتد القتال حتى ظن الناس أنه الفناء، ثم انتصر المسلمون وانهزم البربر وقُتلوا قتلاً ذريعاً، وانهزمت ملكة البربر دهيا، ثم أُدرِكتْ فقُتلت عام ٦٩٣م.

إلى هنا نكون قد بلغنا فترة دخول الإسلام إلى الشمال الأفريقي لتنتهي فترة ملوك ما قبل الإسلام وتبدأ فترة مجد جديدة سيرفع فيها الفرسان الأمازيغ راية النصر لنشر الدين الإسلامي إن غرباً أو شمالاً أو جنوباً. وسيظهر قادة وفرسان من الأمازيغ ملأوا الأصقاع في جنوب أوروبا وما وراء الصحراء الكبرى بأخبار الإقدام والشجاعة لينشروا ديناً آمنوا به وتمثّلوا عمق مفاهيمه، وأول هؤلاء فاتح الأندلس طارق بن زياد، ثم خوارج البربر من الصفريين الذين رفضوا تجبّر بعض الولاة العرب الذين عاملوهم بإذلال، لكنهم قبلوا الإسلام ديناً سمحاً لا يفرّق بين عربيٍّ وأعجمي إلا بالتقوى. بعد ذلك سيظهر ملوك من البربر كتبوا بمداد الفخر تاريخاً إسلامياً لم يسبقهم إليه أحد في الغرب الإسلامي، ومن هؤلاء نذكر المرابطين والموحدين والمرينيين في المغرب الأقصى والحفصيين في تونس وبنو حماد في الجزائر.

الفصل السادس

الكُتّاب الأمازيغ

في هذا الفصل سنقرأ أهم إنتاجات كتّاب الأمازيغ، التي تم تأليفها في لغات أجنبية، حتى نتبين أن الفكر الأمازيغي كان قادراً منذ القدم على التفوق في مجالات فكرية وثقافية كالمسرح والشعر والرواية... من خلال لملمة تراث أفريقي أمازيغي لاتيني لأجداد الروائي كاتب ياسين والشاعر محمد خير الدين نستطيع أن نتبين مدى الاندماج الذي عرف به المغاربيون منذ قرون خلت في الثقافات الأجنبية الوافدة عليهم، هذه الثقافات التي اعتبروها دائماً غنيمة ربحوها من مستعمريهم، على حدّ تعبير كاتب ياسين. سنتطرق لكاتبين كبيرين هما المسرحي والشاعر ترنس أفير صاحب مسرحية **فتاة أندروس** والروائي ليكيوس أبوليوس صاحب رواية **الحمار الذهبي**. الأول قال فيه الإمبراطور يوليوس قيصر: "هذا النصف من ميناندر" (يقصد المسرحي الهيليني Ménandre الذي كانت أعماله الكبيرة بمثابة إلهام للمسرحي ترنس). أما الكاتب الموسوعة الفرنسي ديدرو فقد قال في ترنس الأفريقي: "هؤلاء العبيد الذين حصلوا نصيباً من المعرفة العلمية والأدبية، والذين حققوا مجد ومتعة أسيادهم" (Diderot, ١٧٦٢). وقد تميزت مسرحيات ترنس بالبعد الكوميدي وبقدر كبير من عمق التفكير، وكان لها أثر كبير على كتَّاب الملهاة الأوروبيين خلال القرون الأخيرة، وخاصةً موليير. أما الثاني فقد فتح الباب للكتابة الروائية من خلال موضوع لطالما سيتبناه كبار الكتّاب، أعني موضوع التحول (La Métamorphose). ويعدّ لوكيوس أبوليوس، صاحب رواية **الحمار الذهبي** التي تحكي عن تحول إنسان إلى حمار مع الحفاظ على قوة ملاحظته خالصة كإنسان، بحقّ، أبرز روائيي العصور القديمة.

١ـ ترتنيوس أو ترنس أفير (Publius Térence Afer)

ولد أفير سنة ١٨٥ قبل الميلاد. وتعني أفير، في اللغة الأمازيغية، الأفريقي. وفي سن الخامسة من العمر سيُباع أفير لرجل اسمه بيبليس ليكانوس حرّره مباشرةً بعد شرائه وسمّاه ترتينيوس، ثم اتّخذه ابناً له وربّاه أحسن تربية. تعلّم أفير الكتابة وسنّه لم تتجاوز الثامنة من العمر. وفي سن التاسعة

عشرة، أي سنة ١٦٦ قبل الميلاد، قدّم ترتنيوس مسرحية من إنتاجه سمّاها **أدريا** حققت نجاحاً باهراً. ثم في سن الواحدة والعشرين أصبح أفير ضمن الأرستقراطية الرومانية المتأثرة باللغة الإغريقية المستندة إلى ضرورة تحرير الفكر. كان ترنس رجلاً وسيماً، ثاقب الفكر حسب ما حكاه سيوتون (Suétone) . قبل موته، انتقل ترنس إلى أثينا ليشتري بوسائله المادية المحدودة مكتبةً عامرةً بالكتب الإغريقية النادرة. وإثر عودة السفينة المحملة بالكتب إلى روما غرقت وسط البحر. أصابت الكآبة الشاعر والمسرحي ترنس أفير ليموت غماً وكآبةً وحزناً على كتبه النادرة شهوراً فقط بعد الحادثة. لم يعمر ترنس أفير طويلاً، إذ توفي في سن مبكرة لم تتعدَّ ٢٦ سنة بعد أن ترك بنتاً ورثت اسمه وتزوجت فارساً من فرسان روما.

ـ أعمال ترنس أفير المسرحية

يعدّ ترنس الأفريقي، الذي حملوه إلى روما مع العبيد، أحد أكبر أسماء الكوميديا (الملهاة) في تاريخ المسرح العالمي. وقد ذكر لنا التاريخ أنه كان يتردد على الحلقة الأدبية والسياسية التي أسستها عائلة شيبون إميليان الشهيرة في روما واستمرت في رعايتها للآداب والفنون منذ القرن الثاني قبل الميلاد (Cicéron, De rep., II). وترنس هذا هو الذي قال تلك الحكمة الشهيرة: "أنا إنسان، وكل ما هو إنساني ليس بغريب عني". ولعل ما يميز أعماله المسرحية هو إدخاله بعض العناصر التراجيدية في صلب الكوميديا، واهتمامه بدراسة الشخصيات، وتأكيده على المغزى الفكري أكثر من اهتمامه بالأحداث. ولا ننسى أنه كان يتوجب أولاً على ترنس تحبيب المسرح للرومان الذين كانوا ينزعون أكثر إلى الفرجة القتالية، أي مصارعة العبيد (gladiators). كان ترنس عند ملتقى ثلاث ثقافات: أمازيغية وإغريقية ولاتينية، أو لنقل ثقافة متعددة خلقت كاتباً مسرحياً بصم فترته بأعمال خالدة. وقد تأثر بكتابات المسرحي الكبير ميناندر Ménandre رائد المدرسة الواقعيّة. لم يترجم ترنس أفير حرفياً المسرحيّات التي نقلها عن أسلافه، بل تصرّف فيها، فزاد وأنقص وتوسّع وقلص وطعّمها بمشاهد من مسرحيّات أخرى (contaminatio) للتنويع وزيادة الحركية على الخشبة.

ألف ترنس الأمازيغي سلسلة من ست مسرحيات، وفي كل سنة ما بين ١٦٦ و ١٦٠ ق.م كان يطالع الجمهور بواحدة منها، فصارت له شهرة كبيرة، ونال الجوائز، فحسده الحساد واتهموه بالسرقة والانتحال الأدبي، فدافع عن نفسه بما كان له من قوة المعرفة، ووصف الاقتباس الناجح شكلاً آخر للإبداع، وكان يردّ بأن أعماله اقتباس ودمج وتركيب ومحاكاة للأعمال اللاتينية الضخمة

التي سبقته، وإعادة إنتاجها في قالب يوافق ذوق العصر. وفعلاً سينصفه التاريخ فيما بعد، إذ ردّ إليه نقّاد العصور المتعاقبة اعتباره كاملاً وبيّنوا أن تأثيره في الأدب المسرحي بقي ظاهراً إلى حدود القرن الثامن عشر الميلادي. وسيكتشف الرواد في السنوات الأولى لعصر النهضة بأوربا أعمال ترنس أفير، بل ستتأثر الكوميديا المعاصرة حينها بالخط المسرحي الذي انتهجه هذا الكاتب العظيم.

فتاة أندروس/ أو الأندريّة (La Jeune fille d'Andros ou L'Adrienne): هي أولى مسرحيّات ترنس الأفريقي، عُرضت على الخشبة سنة ١٦٦ ق.م، اقتبسها ترنس من مسرحيّة لميناندر (Ménandre)، ولقّحها بعناصر من مسرحية أخرى، ثم أضفى عليها من خياله ليجعلها توافق ذوق عصره. وهي قصة حب وخداع عبد لسيده... وقصة المسرحية في الواقع تحكي عن حب مستحيل بسبب القيم والتقاليد الاجتماعية القائمة وقت ذاك. لم تكن مسرحية للإمتاع فقط، بل هي قراءة شاملة لعالم جديد (روماني) يكتشفه الكاتب الأمازيغي، لذا نجده يركز على العلاقات المنسوجة بين أفراد هذا العالم. كما تعرض المسرحية التعارض بين رغبة المحب والقواعد المنصوبة من قبل المجتمع. ومن ثم فإن تدفق الأحاسيس هو الذي سيحدد تسلسل الأحداث في هذه المسرحية. وقد سال مداد كثير حول هذه المسرحية وكتب عنها كتّاب كبار من أمثال الفرنسي ديدرو (Diderot, 1762.)، وأبولينير (Apollinaire, 1971). وبالإضافة إلى مسرحية **أدريا**، ألف ترتنيوس مسرحيات أخرى: **الأخوة**، و**الخصي**، و**المقفى** يرفض فيها كل أنواع التهريج المجاني، ثم مسرحية **الحماة** المتأثرة بالأفكار اليونانية، فمسرحية **جلاد ذاته** أو **معذب ذاته** التي يطرح فيها العلاقة بين الأرستقراطية وسواد الشعب، مؤكّداً على الميولات المشتركة بينهما وفاضحاً المشاكل الاجتماعية في قالب ساخر يرتكز على المشاهد المسرحية الاستعراضية. وتعدّ كتاباته ذات بعد إنساني تهتم بمشاكل المجتمع من خلال خصائص شخصياته ومكونات دواخلها العاطفية المعقدة. ولعلّ رسالته الأساسيّة هي الاعتدال والوسطيّة وفق فلسفة أرسطو في تحليله للفضيلة كوسط بين رذيلتين.

٢– لوكيوس أبوليوس (LuciusApeleius أو Afulay)

ينتمي لوكيوس أبوليوس (Lucius Apeleius) إلى شمال أفريقيا، وهو واحد من الذين برزوا في ميدان الأدب اللاتيني، إلا أنه فاقهم جميعاً من حيث غنى معارفه وتنوع كتاباته، خاصةً الكتابات القصصية والروائية. ومن ثم اعتبر أبوليوس بحق ممثل السرد اللاتيني الأفريقي ووُصف بأمير

خطباء أفريقيا وأكثرهم نفوذاً وشهرةً في عصره، حتى ولو أهمله معاصروه من الأدباء ولم يتحدثوا عنه كثيراً. وتضم روايته **الحمار الذهبي** مجموعة من القصص يرويها المؤلف بضمير المتكلم. وتعدّ هذه الرواية في واقع الأمر محاكاة ساخرة تنتمي إلى أنموذج قصص المغامرات. كما أن التحول الساخر من إنسان إلى حمار له صلة بالجنس الأدبي الذي يعتمد التحول كنهج للتعبير النثري. إنها رواية تجمع بين السخرية والاستعراض والفكاهة والهزل الماجن والنكات والهجو اللاذع. كتب أبوليوس روايته بحرية متناهية غير مقيد بالمعايير الصارمة، غير أنها لا تخلو من مشاهد القسوة والجريمة والغرابة والجنس المقنّع من حين لآخر. وكما مسرحيات ترنس، أخذ الروائي أبوليوس المصدر اليوناني على أنه إطار لإضافة حكايات أخرى تتخلل خط الرواية الرئيس. وقد اعتمد أبوليوس بالإضافة إلى المصدر اليوناني على المصدر الأمازيغي فيما يتعلق بالمعتقدات الوثنية لذلك العصر (الأعمال السحرية التي كانت في الشمال الأفريقي)، حيث أن معاناة البطل عند أبوليوس تجد حلها أخيراً في الأسرار المقدسة. وأسلوب الرواية مليء بالعبارات الشعبية والاقتباسات الأدبية القديمة، متوفر على المحسّنات البلاغية وشيء من الشاعرية ومليء بالمتعة، لذا خاطب أبوليوس القارئ في تقديمه للرواية قائلاً: ''انتبه، ستنال حظك من التسلية!''.

ولد لوكيوس أبوليوس (أو أفيلاي في الأمازيغية) في بلاد النوميديين، بمدينة داررووش (Madauros)، المدينة الجزائرية بالقرب من الحدود التونسية، حوالي سنة ١٢٥ ميلادية. وقد اختار الإقامة بقرطاج، وهو مدين بشهرته وبتكريسه كاتباً كبيراً لهذه المدينة الفينيقية. تعلّم في قرطاج، ثم في أثينا حيث درس، على الخصوص، الفلسفة الأفلاطونية. ويُعْرف عن أبوليوس أنه قام بأسفار عديدة جرياً وراء المغامرة والبحث عن المعرفة. سافر إلى روما حيث امتهن المحاماة. ثم خلال سفره من بلده الأصلي إلى مصر توقف في طرابلس حيث تعرّف إلى أرملة غنية جداً كانت تكبره سناً، وتسمّى إميليا بيدونتيلا. تزوجها وورث كل ما تملك بعد وفاتها. وأمام حرمانهما من إرث ابنتهما ما كان من أبويها إلا اتّهام أبوليوس بالسحر وبتسليط الأرواح على ابنتهما لتعشقه وتسحر به وتوصي له بكل ما تملك. تقدم الأبوان بدعوى قضائية إلى القنصل الروماني كلوديوس مكسيموس بطرابلس، وخلال هذه الفترة كتب أبوليوس دفاعه بقلمه، فهو دارس للقانون، ليُحكم له بالبراءة ويستقر بعدها في قرطاج حيث درس البلاغة.

كان أبوليوس خطيباً متمرساً يخطب في الجمهور العريض في عدد كبير من مدن شمال أفريقيا. كما اعتُبر واحداً من أولئك السحرة المستعينين بالغيبيات الذين يُنعتون دائماً بأنهم ضد المسيح. ورغم كفاءاته تلك، لم يتقلّد أبوليوس أي منصب رسمي في مجال القضاء، كما يخبرنا القديس

أوغسطين. وفي إطار مناخ قرطاج الثقافي أنجز أبوليوس أعماله الفكرية والأدبية وكتابه الذائع الصيت تحت عنوان **التحولات** أو **قصة الحمار الذهبي**. ويعدّ هذا الكتاب من أهم الأعمال الأدبية الخالدة، وقد تُرجم إلى العربية أيضاً، ويروي قصة إنسان مُسخ حماراً. ولربما يحكي فيه الكاتب ذكرياته في اليونان القديمة وفي بعض الأماكن من شاطئ البحر الأبيض المتوسط. لا يُعرف أي شيء عن وفاة أبوليوس: أين ومتى وتحت أية ظروف مات. لكن الأكيد هو أنه توفي حوالي ١٧٠ ميلادية قرب قرطاج، مدينته المحببة.

ـ أعمال لوكيوس أبوليوس

يمكن القول إن رواية **الحمار الذهبي** رواية قديمة ارتبطت بالغيبيات والسحر. ورغم أنها تغرق في الغيبيات وتبتعد عن العقلانية، إلا أن وصف الكاتب لتحوله من إنسان إلى حمار كان إبداعاً جيداً يذكّرنا اليوم برواية النمساوي فرانز كافكا الذي اعتمد تقنية المسخ حين تحول بطله في إحدى رواياته التي تحمل نفس العنوان، **التحول**، إلى صرصار. ويعدّ لوكيوس أبوليوس من المدافعين عن الخصوصية الأمازيغية الأفريقية المتعلقة حدَّ الهوس بمعتقداتها وعاداتها في مواجهة الطقوس التي كانت تفرضها روما تمجيداً وتبجيلاً وتعبّداً للقيصر، وكذا في مواجهة المدّ المسيحي. بكتابه **الحمار الذهبي** احتل أبوليوس الصف الأول مع كبار الكتّاب العالميين الخالدين. وفي كتابه ذاك اتّخذ الرواية الطويلة النفس مطيةً لوصف الأوضاع الاجتماعية وانتقادها في سخرية حيناً وفي شدة وصرامة أحياناً. دافع عن المستضعفين، وطرق بكيفية غير مباشرة موضوعات فلسفية، مظهراً نزعته الصوفية وميوله إلى الديانات المشرقية النشأة وولعه بعبادة الآلهة المصرية عوض المسيحية السائدة وقتها، فوُصف بـ"النوميدي المزعج"، ولكن اعتُرف له بصدق التعبير وبالبراعة في فنَّي القصّ والكلام. وكان هو نفسه يصرّح أنّه تأثر بعمق الفكر اليوناني (محمد شفيق، ١٩٨٩).

ومن أهم مؤلفات أبوليوس التي وصلتنا نذكر:

١ـ كتاب **الدفاع** أو **السحر**، حيث يدافع عن نفسه بحرارة إثر اتّهامه بالشعوذة ويكشف القناع عن إحساس حاد بقيمه الشخصية. كما أنه سيرة ذاتية تمدّ القارئ بمعلومات عن قناعات واعتقادات الكاتب أبوليوس وموطنه أفريقيا خلال تلك الفترة. كل هذا يتم تحت نهج بلاغي يعرض فيه الكاتب للأنا الأمازيغية مقابل الآخر اللاتيني ـ الإغريقي.

٢– كتابا **الفلوريدات** ***Les Florides***، ويمكن ترجمة هذا العنوان إلى اللغة العربية بـ **الورديات** أو **الزهريات**، وهي أنطولوجيا تضم مختارات من أعماله وندواته وخطبه. كما يجمع مناقشات شفهية في عدة مجالات. إنه بالأساس عبارة عن آراء كاتب مسافر باستمرار، بالمعنى المادي والمعنوي لكلمة السفر.

٣– كتاب حول إله سقراط يتطرق لعالم الأرواح والجن. شخصيات غريبة يقدمها الكاتب لتجد مكانها في العالم الإلهي وعالم البشر. شخصيات من ثلاثة أنواع: أرواح داخل جسد، أرواح تحررت من الجسد وأرواح لم يسبق لها أن سكنت الجسد المادي من قبل.

٤– كتاب فلسفي حول مذهب أفلاطون يتعرض للأمور الأخلاقية والمادية. إنها قراءة مراوغة لمسألة الأخلاق عند أفلاطون.

٥– كتاب يتعرض لعلم الفضاء وموضوع الدين. هنا يذهب أبوليوس إلى تقديم فكرته التي تفيد بأن الله أصل الحياة، ولكن أي إله، وهو الأمازيغي الوثني بامتياز؟

وقد كانت بحق كتباً مهمة أغنت تاريخ التفكير اللاتيني في أفريقيا الشمالية خلال القرن الثاني من الميلاد.

– رواية الحمار الذهبي

يبقى كتاب أبوليوس المهم طبعاً هو **التحول** أو **الحمار الذهبي** الذي ظهر في أحد عشر جزءاً. إنها رواية طويلة تُحكى بصيغة المتكلم بطلها لوكيوس أو لوسيوس، وهو شاب يسكنه الفضول. خلال سفر الشاب لوكيوس، الذي ينتمي إلى عائلة ميسورة، إلى هيباتا، اكترى غرفة عند ساحرة تسمى فوتيس. بعد ذلك سيدخل في علاقات عاطفية مع خادمتها، ثم سيحاول الإمساك بخيوط معرفتها السحرية. وفي الليل هاجمه ثلاثة لصوص ولم يكن له مفر من مصارعتهم، وتمكّن منهم فقضى عليهم جميعاً. قُبض عليه وسجن بتهمة القتل، لكن في المحكمة، عندما طالب القاضي بإحضار الجثث لإثبات الجريمة، تبيّن أنه لم يكن هناك جثث، بل كانت ثلاث قِرَبٍ مملوءة بالهواء. أُطلق سراح الشاب لعدم حدوث جريمة القتل أساساً، على الرغم من أنه كان يظن أنه هو القاتل.

أدرك البطل أن الساحرة علمت بوجوده ورغبت في التحرش به، من هنا ازدادت رغبته في معرفة أعمال هذه الساحرة. وبمساعدة الخادمة التي أحبته وصل إلى بيت الساحرة ورأى بنفسه كيف دهنت نفسها بدهان تحولت بعده إلى بومة، وطارت أمام عينيه في السماء وهو يشاهدها. ازداد حب

الاستطلاع عند لوسيوس ورغب في تجربة الدهان بنفسه، وطلب من الخادمة أن تسمح له بأن تأتيه بالوعاء ليدهن جسده به. وكذلك كان حين استجابت الخادمة لطلبه وأعطته علبة الدهان. لكنها أخطأت في إحضار العلبة الخاصة بالطيور، وأعطته الدهان الذي حوّله إلى حمار، وهنا تبدأ رحلة السخرية التي استفاد منها الكاتب لينقل أفكاره، فقد تحول هذا الإنسان شكلاً، وشكلاً فقط، إلى حمار، لكن عقله بقي عقل إنسان مفكّر. بعد هذه الحادثة غير المتوقعة وعدته الخادمة بأنها ستحضر له الدواء المضاد وهي الوردة الذي ستعيده إلى وضعه الإنساني، وطلبت منه أن يبقى في الإسطبل حتى تحضر له المطلوب، وهنا يأتي اللصوص ويسرقونه مع بقية الدواب لتبدأ رحلة المشاكل والمتاعب.

في رحلته الأولى مع اللصوص يكون لوسيوس (الحمار) شاهداً على عملية اختطاف إحدى العرائس التي سيقع في حبها، وكان يعاملها معاملةً خاصة قدّرتها له، ولكن حياته بقيت معروفة بأنه حمار، ويقوم بأعمال الحمير، فهو يتمنى أن يحمل الحبيبة إلى أي مكان، ولكن أصحاب الإسطبل يفضّلون عمله على رحى طحن أو حمل الحطب والأمتعة. سيهرب الحمار (لوسيوس) ليصبح مطية لعدد من القراصنة، ثم لعدد من العبيد الفارين، ثم لعدد من الكهنة القادمين من سوريا، ثم لطحان، فسبّاخ، فعسكري، فحلواني وطباخين، ثم سيدهما. وبما أن الحمار هو الذي يحكي، وقد حافظ على قوة ملاحظته وفكره النقدي كإنسان، فإن الكاتب يقدّم لنا، من الداخل، كل الأنشطة والأمور التي تشغل الأوساط المختلفة التي اتصل بها في المجتمعات الأمازيغية والرومانية واليونانية. يبقى فكر لوسيوس هو الرابط الذي يربطه ببني جنسه الأصلي. وقد كانت مشكلته الكبيرة في الأكل، فهو لا يأكل أكل الحمير. لذا أحبه أصحابه لأنه حمار صاحب ذوق، فهو لا يأكل الأعشاب ولكنه يأكل الخبز. إثر ذلك تأكدوا من أنه حيوان نادر، فعلّموه بعض الألعاب فأجادها، وجعلوه يقوم برقصات وألعاب على المسارح فبرع فيها. تمكّن الحمار (لوسيوس) من الهرب ليصل إلى شاطئ البحر، غسل بدنه سبع مرات وطلب من الآلهة أن تحرره من شكله الحيواني. وهنا يصل موكب عظيم لتقديس الآلهة يحمل أعشاب الورد المعجزة، فقفز إليها وأكل منها، ليعود إلى هيئته الأولى كإنسان.

تحول لوسيوس إلى حمار في الكتاب الثالث من الأجزاء الإحدى عشرة، وظل كذلك يحكي إلى أن وصل الكتاب الأخير الذي سيتمكن فيه من التحول مرةً أخرى إلى إنسان بعد أن أكل الوردة العجيبة وحصل على العفو بمساعدة الإلهة إيزيس. وقد أهدى أبوليوس نهاية سعيدة على شرف إيزيس، إذ في موكب الاحتفال بالإلهة الفرعونية سيأكل الوردة الرمز ويسترد آدميته. هذا الكتاب ليس قصة واحدة بل قصص منوعة وعديدة، كل منها مستقلة بذاتها، ولكنها كلها مندمجة في رواية واحدة. أحد

عشر باباً، كل واحد من هذه الأبواب هو امتداد للرواية، وهو في الوقت نفسه رواية في قلب رواية، مثل قصة العقاب البشع، وقصة العاشق المتخفي، وقصة التنين، وقصة الطحان، وقصة خادم مسنة في مغارة القراصنة، وقصة فتاة تحب الجن، وقصة الإلهة إيزيس التي تستحود على فكر أبوليوس... كل ذلك في أسلوب يتراوح بين الديني والأسطوري والميتافيزيقي والخرافي، تغلّفه نغمةٌ حزينة يتزاوج فيها العنف بالسادية. وحين يحس أبوليوس بالظمأ الفني يستجدي الميثولوجيا الإغريقية. يحدث كل ذلك والكاتب الكبير أبوليوس يبرع في استحضار الخيال المدهش والأسطورة ليروي لنا قصةً امتنع حتى الآن عن النقّاد التوصّل إلى الإمساك بجميع تفاصيلها وخيوطها، فهو ينتقد الوضع السياسي في روما مستحضراً كل ما يخالج الفرد من ثنائيات: الحب والكره، التضحية والخيانة، الوفاء والغدر، الفضيلة والرذيلة، الاحترام والتطاول، الدراما والكوميديا، الإيمان والتحرر... كما يجمع أبوليوس في روايته بين شخصيات متناقضة أيضاً: الغني والفقير، القرصان والفلاح، العسكري والتاجر، الغانية والمتعففة، الساحرة والمؤمنة...

وهنا نطرح السؤال التالي: لماذا التحول إلى حمار وليس إلى حيوان آخر؟

يُنعت الحمار في الثقافة الأمازيغية بالبلادة، لكن أيضا بالمكر. وبخصوص ذكاء حمار أبوليوس نقرأ في الرواية:

> وقد تنبأ الحمار الآخر بقصدي وسبقني إليه، فتصنّع فجأةً التعب وهوى بكل ثقل جسمه وظل ممدداً على الأرض كما لو أنه جثة هامدة، فلا الضرب بالعصا التي انهالت عليه، ولا الوخز بالقضيب، ولا الجذب والشد الذي تعرض له عنقه وقوائمه، كل هذا لم يفلح في رفعه من على الأرض. وحين تعب الذين سرقوه من أمره ولم يعد لديهم أمل في تحركه، تشاوروا، لتنتهي بهم المشورة إلى حزّ ساقيه بالسيف وجرّه بعيداً عن الطريق، وهو لا يزال يتنفس، ثم رميه من فوق تلة عالية جداً حتى لا يعطّلهم عن الهرب. حين فكرت أنا فيما آل إليه الحمار صديقي، قررت أن أتراجع عمّا كان في نفسي من مكر ومضيت أخدم أصحابي بكل وفاء وإخلاص.

وعن الغراب الذي يعتبره البربر فأل شؤم وإنذاراً بالموت وإشارةً إلى الشيخوخة والذمامة، نقرأ أيضا في الرواية:

> أي طائر أجمل ومحبّب إلى المرأة أكثر من الغراب. ألا نقوم باصطياد هذا الطير ليلاً متى دخل البيوت لندقّه بالمسامير على الباب حتى نطرد بتعذيبه الكارثة التي كان سيجلبها لنا وهو يطير محلقاً من حولنا في الفضاء؟

ونقرأ أيضاً في الرواية عن البئر التي تعدّ رمزاً للانتحار عند الأمازيغ:

> وجّهت غضبها ضد سلالتها، إذ إنها ستلف جسدها بحبل وتشدّ إليها بنفس الحبل رضيعها الذي أنجبته للتو من زوجها، ثم سترمي بنفسها في البئر العميقة.

كما نقرأ عن الحلم في الرواية:

> لا ترهبنّك صور الأحلام الزائفة، إذ لا تُعدّ أحلام النهار وحدها كاذبة، بل إن أحلام الليل تشير في الغالب إلى عكس ما تذهب إليه ظاهرياً. وبالتالي، فإن البكاء، أو تلقّي اللكمات، أو حتى التعرض للذبح في بعض الأحيان، ينبأ بربح أو حدوث أمور سعيدة. وبالعكس، فإن الضحك، أو ملء البطن بالحلوى أو أي شيء حلو جميل، أو الاجتماع بفرد لتذوق اللذة الجسدية يعني أن الحزن أوالمرض أو أشياء أخرى عصيبة هي لصاحبها بالمرصاد.

هكذا فإن أمر هؤلاء الأمازيغ غريب عجيب، فهم يتوفرون على أقدم لغة كان لها خط معروف منذ غابر الأزمان يعرف بالتيفيناغ، لكنهم كانوا يتحدّون مستعمريهم بتعلم لغاتهم والإبداع فيها عوض الإنتاج في الأمازيغية لغتهم الأم. ويكفي الأمازيغ القدامى فخراً أن وجد فيهم أبو الكوميديا المقتبسة ترتنيوس أفير وأبو الرواية المفتوحة على إشكالات العالم لوكيوس أبوليوس. أما عن الكتابات الدينية فحدّث ولا حرج، فدعاة المذهب المسيحي الدوناتي ظهروا في الشمال الأفريقي ليطوروا آراءهم في مواجهة تسلط روما التي اعتنقت المذهب المسيحي الكاثوليكي كإيديولوجيا للتستر على ما كانت تقوم به من تجاوزات داخل مستعمراتها. وقد سبق لنا أن تحدثنا عن فقهاء المذهب الدوناتي بشمال أفريقيا في الفصل الذي خصصناه للمعتقدات والديانات، وأوسعنا فيه الحديث عن عالم جليل ظهر في الجزائر هو القديس أوغسطين.

الفصل السابع

السنة الأمازيغية، الأبراج والرموز

نواصل لملمة المعلومات عن خاصيات شعب الأمازيغ مقتفين أخبار التاريخ وأحاديث الأسطورة، ونطرق في هذا الفصل باب الحديث عن السنة الأمازيغية التي بدأ العمل بها عام ٩٥٠ قبل ميلاد المسيح. بعد ذلك سنتعرف على أبراج السنة الأمازيغية التي ارتبطت بمعتقدات تنجيمية سبقت تحول البربر إلى الديانات السماوية. وفي نهاية هذا الفصل سنتحدث باقتضاب عن المفاهيم المرتبطة بالرموز لدى الأمازيغ؛ رموز قد تحمل في طياتها ما قد يسعف الباحث المتعمق في فهم هذا السر واللغز الذي ارتبط دائماً بالأمازيغ. ألم يقولوا: رُبّ إشارة أبلغ من عبارة؟

١ــ السنة الأمازيغية سنة زراعية

نعرف أن السنة الهجرية سنة قمرية يفصلها عن السنة الشمسية المعمول بها عالمياً، والتي تعتمد تعاقب الفصول ودوران الأرض حول الشمس، ١٣ يوماً كل سنة. أما عند الأمازيغ القدامى فإن السنة يضعها الفلاحون اعتماداً على معالم يتعرفون عليها. ويصادف يوم ١٢ يناير من السنة الميلادية بداية السنة الأمازيغية الجديدة. و"النَّايَرْ" Yennayar كلمة أمازيغية مركبة من YEN أي واحد و AYER وهو الشهر، أي الشهر الأول في السنة. كما يطلق عليه أيضاًId N Usggas ، أي ليلة السنة، أو "تابورت أوسقاس" عند القبائل، وتعني باب السنة، وهو اليوم الذي يفصل بين فترتين ويتم الاحتفال به في كل الشمال الأفريقي منذ قرون مديدة.

وقد بدأ الحساب بالسنة الأمازيغية منذ سنة ٩٥٠ قبل الميلاد. ويستعمل الأمازيغ الأسماء الغريغورية مع بعض التحريف لتأثرهم بالرومان الذين استوطنوا أرضهم لقرون متعاقبة، غير أن الأمازيغ نسجوا حول تلك الأسماء قصصاً أسطورية وجعلوا منها جزءاً من ثقافتهم الخاصة. ويعتقد أن السنة الأمازيغية تبتدئ بعد تمكن زعيم المشوش الأمازيغي شيشنق أمزوار من هزم جيوش الفرعون سنة ٩٥٠ ق.م. ومن ثم فإن السنة الأولى من الميلاد تقابل السنة ٩٥١ في التأريخ الأمازيغي، وبالتالي فإن سنة ٢٠٥٠ ميلادية تقابل سنة ٣٠٠٠ أمازيغية.

وتتزامن السنة الأمازيغية مع تعاقب الفصول ومختلف أطوار حياة النباتات التي تحدد أوقات القيام بالأعمال الزراعية والفلاحية وكذا مواقع النجوم. ويتوافق حلول يناير أو "النَّايَرْ"، الذي يسجل فترة ما بين طوري دوران الأرض حول الشمس، مع بداية السنة الفلاحية. وتتكون السنة الزراعية، كما السنة الشمسية، من ٣٦٥ يوماً مقسمة إلى أربعة فصول هي:

– **تَكَرْسْتْ** (الشتاء): إنها فترة السكون والنوم والتجدد. خلال هذا الفصل يتم الاستعداد للسنة الموالية.

– **تَفْسُوتْ** (الربيع): مرحلة الولادة المتجددة. خلالها يتم إخصاب الأرض وتلقيح الدواب. تنزل الأمطار لتسقي الأرض أو تقام طقوس "تاغنجا" إن لاح الجفاف في الأفق لطلب الرضا من الإله أنزار (إله المطر).

– **إويلين** أو **انبدو** (الصيف): فترة الحصاد وجمع المحاصيل وجني الفواكه، فترة صنع الأدوات الفخارية وجعلها تجف تحت أشعة الشمس، فترة فيض الخيرات والاحتفالات.

– **أميوان** أو **تمنزويت** (الخريف): مرحلة الحرث وتحضير الأرض وجني حبات الزيتون وبعض الفواكه. خلال هذا الفصل يوجه الاهتمام أكثر إلى العائلة والبيت.

ويكون الاحتفال ببداية السنة الفلاحية الأمازيغية، الذي يرمز للخصوبة، بإقامة طقوس لإبعاد الجوع وللتفاؤل بالخير ووفرة المحاصيل. ويُنحر عادةً في القبايل بالجزائر بالمناسبة ديك على عتبة البيت. وتشير هذه الطقوس إلى إبعاد سوء الطالع والتفاؤل بالخير ووفرة المحاصيل. ويعتقد في بعض المناطق أن من يحتفل بـ"الناير" سيبعد عن نفسه عين السوء. كما يعدّ "الناير" مناسبةً للقيام بطقوس محلية عديدة تختلف باختلاف المناطق. ويتمثل عشاء ليلة يناير (إِيمَنْسِي) عادةً في طبق من الكسكس بلحم الدجاج أو "أكلة أَرَبَّازْ" في بعض المناطق بالمغرب. ومن العادات التي تباشر بهذه المناسبة في بعض مناطق سوس عصيدة يناير (تَكَلاَّ نْنَّايَرْ)، وتكون العصيدة محشوة بحبات أركان (أقاين) أو عجمات التمر (أغرمي). وفي مناطق أخرى يُحضّر الكسكس بمرق من سبعة أنواع من الخضار، يوضع فيها نوى تمرة واحدة لاعتقادهم أن من وجد هذه النوى أثناء الأكل يعتبر سعيداً ومباركاً وسط العائلة خلال تلك السنة الجديدة. ولدى "إِيمَغْرَانْ" كان ذلك السعيد يحظى بتسلم مفاتيح مخزن العائلة. وتُحضّر في بعض القرى في اليومين المواليين للأول من يناير أطباق أخرى تتمثل في طبق "أوفثيان"، وهو حساء من مزيج من الحمص والقمح والفول مرفوقٌ بحلويات تقليدية وسكريات للتفاؤل بحلول سنة طيبة. ويتوجب على كل أفراد العائلة أن يأكلوا حتى الشبع، ويحثّ الكبار الأطفال على الأكل ملء البطون وإلا حذرتهم الأم من أن "عجوز نناير" ستملأ بطونهم تبناً

وهشيماً. وحسب اعتقاد عام راسخ عند أمازيغ القبايل فإن الاحتفال بهذا اليوم يعود إلى أسطورة مفادها أن ''النَّايَرْ'' طلب من ''فورار'' (فبراير) أن يقرضه يوماً واحداً كي يعاقب العجوز التي كانت قد سخرت منه، فحدثت يومها عاصفة هوجاء ماتت جرائها العجوز، ليبقى بذلك موت العجوز في الذاكرة الجماعية عبرة وعاقبة لكل من تسوّل له نفسه أن يسخر من الطبيعة.

٢ـ الأبراج الأمازيغية

خلافاً لعلم التنجيم الروماني الذي يعتمد أساساً على نظام البروج السماوية، أي موقع الكواكب في السماء، يلجأ فن التنبؤ أو قراءة الطالع عند البربر إلى العلاقات التي ينسجها الأمازيغي مع محيطه ونشاطه الأساسي المرتبط بالزراعة وتعاقب الفصول وتحولات الطبيعة. كل فصل يتميز بخصائصه الإيجابية والسلبية ورموزه القوية والضعيفة التي تَنْسِبُ للشخص المولود في فترة معينة خصالاً بدنية وأخلاقية وعقلية يمكن تطويعها وصقلها للعيش في انسجام تام داخل مجتمع تحكمه طاقات وقوى غيبية. كل فصل من فصول السنة الأمازيغية (السنة الزراعية) الأربعة يشير إلى برج رئيسي أو قوي، وكل برج رئيسي يشار إليه برمز ويضم ثلاثة أبراج ثانوية أو شخصية يشار إليها هي الأخرى برموز. وبالتالي، فإن لكل شخص برج قوي (رمز رئيسي) يشير إلى الفصل الذي ولد فيه وبرج شخصي (رمز ثانوي) يشير إلى الشهر الذي تمت فيه ولادته. وتتوزع الأبراج كالتالي:

ـ **المشط** (فصل الشتاء: من ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر إلى ١٣ شباط/فبراير)

١. **الثعبان** (١٤ تشرين الثاني/نوفمبر إلى ١٣ كانون الأول/ديسمبر)

٢. **الثور** (١٤ كانون الأول/ديسمبر إلى ١٣ كانون الثاني/يناير)

٣. **العنكبوت** (١٤ كانون الثاني/يناير إلى ١٣ شباط/فبراير)

ـ **المرساة** (فصل الربيع: من ١٤ شباط/فبراير إلى ١٣ أيار/مايو)

٤. **الخروف** (١٤ شباط/فبراير إلى ١٣ آذار/مارس)

٥. **الشجرة** (١٤ آذار/مارس إلى ١٣ نيسان/أبريل)

٦. **الطير** (١٤ نيسان/أبريل إلى ١٣ أيار/مايو)

ـ **المطرقة** (فصل الصيف: من ١٤ أيار/مايو إلى ١٣ آب/أغسطس)

٧. **العضاية** (١٤ أيار/مايو إلى ١٣ حزيران/يونيو)

٨. **الذبابة** (١٤ حزيران/يونيو إلى ١٣ تموز/يوليو)

٩. **النحلة** (١٤ تموز/يوليو إلى ١٣ آب/أغسطس)
– **المنزل** (فصل الخريف: من ١٤ آب/أغسطس إلى ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر)
١٠. **العقرب** (١٤ آب/أغسطس إلى ١٣ أيلول/سبتمبر)
١١. **الحلزون** (١٤ أيلول/سبتمبر إلى ١٣ تشرين الأول/أكتوبر)
١٢. **الحوت** (من ١٤ تشرين الأول/أكتوبر إلى ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر)

٣– مميزات الأبراج الأمازيغية

٣–١– **مشط النسيج** (الرمز الرئيسي الأول)

المشط أداة تستعملها المرأة خصوصاً، وهو متعلق بالنسج يمثل حركة العالم، لكن أيضاً التماسك والتوازن والنظام. يمثل أيضاً الاتحاد المتناغم للروح والمادة. كل تلاقٍ للخيوط العمودية بالخيوط المتشابكة تمثل اتحاد الإله الخالق بالعالم المُحْدَث. وفيما يخص الأبراج، كل الأشكال المرتبطة بالمشط (الثعبان والثور والعنكبوت) تمثل أشخاصاً مبدعين، يعملون بجد ومتأملين للعالم. هؤلاء مثاليون في الغالب، لكنهم مع ذلك قادرون على التلاؤم مع متطلبات الحياة، يخططون للمشاريع ويعملون كل ما في جهدهم لتحقيقها.

– **الثعبان:** (برج المولودين من ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر إلى ١٣ كانون الأول/ديسمبر)

يمثل الثعبان بدائية الحياة. إنها القوة الحية التي تحرك العالم وتخصبه. يعدّ الثعبان في الذهنية الأمازيغية والأفريقية رمزاً إيجابياً، إنه يجسّد الحياة في شكلها البدائي، لكن أيضاً الطاقة والقوة الحية المتجددة. يمثل الثعبان الحياة الخالدة والاستمرارية والحركة عبر تغيرات الزمن وتقلباته. إنه يجسد فكرة الاستمرار وإعادة الولادة، كما يشير إلى القضيب الضروري للعملية الجنسية، بالإضافة إلى رمزية توحي بحرارة قرص الشمس حين يدور حول ذاته.

– **الثور**: (برج المولودين من ١٤ كانون الأول/ديسمبر إلى ١٣ كانون الثاني/يناير)

يعد الثور رمز الذكر الذي يخصب العالم، لكنه أيضاً رمزٌ سماوي يجمع القوى الخلاقة والقوى الروحية. الثور صادق، متحمس، مصمّم على آرائه. مثل الثعبان، ينزع الثور إلى العمل، وإن نقصه في بعض الأحيان التفكير والتروي. الثور عفوي فيما يقوم به، لكن روحه القتالية تمدّه بالقوة للعمل

والمثابرة. خصائص القوة والصدق والوفاء تجعل الآخرين يرتاحون للثور، لكنه قد يبدو في بعض الأحيان فظاً ومتوحشاً يصدم أحاسيس الآخرين.

– **العنكبوت:** (برج المولودين من ١٤ كانون الثاني/يناير إلى ١٣ شباط/فبراير)

العنكبوت رمز العمل الجاد والصبر والتناغم. إنها رمز أنثوي يمثّل الحياة العملية، ويشير إلى الصبر والعمل بإتقان. العنكبوت مبدعة تتوفر على مهارات يدوية، بل فنية. العنكبوت قادرة على التركيز والمثابرة، دائماً كتومة وهادئة، لكن يجب الاحتراس من ردود فعلها وفعاليتها. العنكبوت تهتم بالحياة الداخلية وتتحلّى بالحكمة العملية ويمكنها أن تسدي نصائح مهمة. تحب العنكبوت محيطها وتسعى إلى إعانة أفراده والدفاع عنهم باستمرار.

٣–٢– **المرساة** (الرمز الرئيسي الثاني)

تمثل المرساة أيضاً التوازن ووضوح الرؤية، على خلاف الحياة المتحركة، إنها رمز الصلابة والوفاء الدائم والاستمرارية. يجسّد المنضوون تحت هذا الرمز الرئيسي فكرة السلام والتوازن والاستقرار.

– **الخروف:** (برج المولودين من ١٤ شباط/فبراير إلى ١٣ آذار/مارس)

الكرم هي الصفة الأساسية. يمثل الخروف القوة الجسمانية والحياة في عنفوانها وكرمها والقدرة التوالدية. ويعدّ الخروف رمزاً مهماً بالنسبة للبربر. يمثل أيضاً الحياة في عنفوانها الجامح ويشير إلى الكبرياء والزهو والافتخار والحرية. الخروف صديق، وفي لمبادئه ولمحيطه، اجتماعي بطبعه ويتوفر على صفات الزعامة، ومن هنا تأتي صلابة آرائه التي قد تزعج في بعض الأحيان. الخروف أيضاً نفور وبالغ الحساسية.

– **الشجرة** (شجرة الزيتون): (برج المولودين من ١٤ آذار/مارس إلى ١٣ نيسان/أبريل)

تمثل الشجرة رمز العطاء متشبّعة بإيحاءات إيجابية وترتبط بالرفاهية والسعادة والخصوبة. إنها مَعْلَمٌ ثابت في عالم متحرك ومتغير. ترتبط الشجرة عموماً بسهولة الحياة والسعادة والخصوبة، إنها تمثل الحياة (الجذور والجذع) والمعرفة (الأغصان والأوراق). وتمثل شجرة الزيتون القوة، لكنها قوة هادئة وكريمة، كما يمثل الزيت المادة الحيوية. المنضوون تحت هذا الرمز أصدقاء يتصفون بكرم ونبل طبيعيين، كما أنهم يتمسكون بقيم العائلة والتقاليد. إنهم هادئون ويحسّ الفرد بالآمان بجانبهم.

– **الطير** (طائر الخطّاف): (برج المولودين من ١٤ نيسان/أبريل إلى ١٣ أيار/مايو)

الطير رمز العلاقة أرض – سماء، يمثل الخفة والذكاء الحاد والروح الطيبة. يحب المنضوون تحت هذا الرمز الفنون والعروض والموسيقى، بالإضافة إلى الأسفار إلى العوالم الجديدة. يتميز الطير بالشاعرية والحساسية ورقة المشاعر. كما أن الطير يهتم بالروحانيات والأديان، لكنه قد يكون متأرجحاً في قراراته وآرائه، وإن كان يتميز بقدرة حادة في التحليل والتفكير.

٣–٣– **المطرقة** (الرمز الرئيسي الثالث)

المطرقة أداة القوة الضاربة والمباغتة. إنها أيضاً الأداة التي تعطي للحديد شكله النهائي. ترمز المطرقة إلى الهيمنة، لكن أيضاً إلى قوة الإبداع. تشير المطرقة أيضاً إلى السلطة والقدرة على التحكم، إنها قوى الطبيعة القادرة على التسيير.

– **العظاءة lizard:** (برج المولودين من ١٤ أيار/مايو إلى ١٣ حزيران/يونيو)

العظاءة شكل مختصر للثعبان. مكان تواجد العظاءة هو البيت تحميه من التأثيرات الظاهرة والخفية. إنها رمز السمو الروحي، تصعد من الظل إلى الضوء بحثاً عن سعادة بسيطة ودائمة. تتميز العظاءة بطبيعة كتومة وتعيش منعزلة كأنما تحافظ على سر. وتحب العظاءة الهدوء والبساطة وتتمسك بمحيطها العائلي.

– **الذبابة:** (برج المولودين من ١٤ حزيران/يونيو إلى ١٣ تموز/يوليو)

دائمة الحركة. إنها تمثل النشاط والحماسة والحركة والقدرة على التوالد إلى ما لا نهاية. المنضوون تحت هذا الرمز يتميزون بالشغف والنشاط والخلق والاندفاع، إنهم يحبون الحركة ومشاعرهم فياضة يفرطون في التعبير عنها. يتميزون كذلك بالشغب، إلا أنهم صادقون في علاقاتهم، صارمون مع أنفسهم ومع الآخرين، طاقتهم لا حد لها ويفيضون بالحيوية. لا يقبلون التنازل ولا أنصاف الحلول، في بحث دائم عن الحقيقة والعدالة.

– **النحلة:** (برج المولودين من ١٤ تموز/يوليو إلى ١٣ آب/أغسطس)

ترمز النحلة إلى العمل الجاد والدقيق. إنها تمثل أيضاً السعادة العائلية والخير المديد، كما يرمز عسلها للذة والحنان والعمر المديد. صفات النحلة النظام والعمل والتواضع، كما أنها مهتمة بالتفاصيل الجزئية وبضبط المواعيد. إنها اجتماعية بطبعها، جدية، كتومة وتعمل للصالح العام، لا تتردد في تقديم العون والمساعدة والتضحية. النحلة ممتثلة لا تتمرد أبداً، ظريفة وحنونة وكريمة،

لكنها تلسع من يقترب من مجالها. عملها المتردد باستمرار يجعلها تحس بالرتابة، وقد يحرمها من الشعور بالحيوية.

٣ـ٤ـ **المنزل** (الرمز الرئيسي الرابع)

البيت رمز الحركة، لكنه أساس الفضاء المتسع في جميع اتجاهاته. يمثل البيت الاكتفاء الذاتي ويرمز لوحده إلى كل مقومات الفكر الأمازيغي المؤسَّس على العدد الأصلي ٤ الذي يعتبر العدد الأساسي والجامع، وهو رمز الفضاء والتوازن الكلي. العدد ٤ هو أساس المربع (وهو يمثل البيت أساس المجتمع الأمازيغي وأساس عددٍ من الحروف في كتابة التيفيناغ). العدد ٤ أيضاً رمز الفصول الأربعة والرياح الأربع والاتجاهات الأربعة (شرق – غرب –شمال – جنوب) ومراحل القمر الأربع، ويمثل أيضاً الأجزاء الأربعة للنباتات (الجذر، الساق، الأوراق، وأزهار الثمار)، وأنواع الحيوانات الأربعة (التي تزحف، التي تطير، التي تمشي، والتي تسبح). بالإضافة إلى هذا، يمثل العدد ٤ الأبعاد الفضائية الأربعة (السماء، الشمس، القمر والنجوم)، ومراحل نمو الإنسان (الطفولة، الشباب، النضج والشيخوخة). كما أن الوعي يشمل أربع وظائف هي التفكير، الشعور، الحدس والإحساس. ويتميز المنضوون تحت رمز المنزل (العقرب، الحلزون والحوت) بالتوازن والنضج، كما أنهم يزاوجون بين الصفات الفكرية والجسدية.

ـ **العقرب:** (برج المولودين من ١٤آب/أغسطس إلى ١٣ أيلول/سبتمبر)

العقرب رمز ثنائي يمثل في آن واحد الموت والعلة، لكن أيضاً الشجاعة والتحمل. تتميز العقرب أيضاً بحكمتها، وبجلاء البديهة في جميع الظروف، لكنها مع ذلك منطوية، كتومة وصامتة. إنها تفضل التفكير البنّاء عوضاً عن الثرثرة والتفاهات. تتميز العقرب بالفعالية والقدرة على إنجاز أكبر الأعمال في وقت قصير ولا تتّكل على أحد. ناقدة لاذعة ولا تغفر بسهولة للأعداء قبل الثأر، لذا يستحسن اتّخاذ أصحاب هذا الرمز أصدقاء لا أعداء.

ـ **الحلزون:** (برج المولودين من ١٤ أيلول/سبتمبر إلى ١٣ تشرين الأول/أكتوبر)

الحلزون رمز إيجابي مرتبط بالمطر والقمر وتعاقب فترات زراعة الأرض. إنه يمثل الخصوبة والاستمرارية. يملك الحلزون صفات عديدة عقلية وجسمانية: الصبر والتحمل والمثابرة والتواضع. إنه رمز يوحي أيضاً بالهدوء والحكمة والنضج والتأمل. يفضّل الحلزون العيش في رغد ولا يتحمل الفوضى والخصام والاختلال، كما ويبحث عن الهدوء والانسجام.

– **الحوت:** (برج المولودين من ١٤ تشرين الأول/أكتوبر إلى ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر)

الحوت هو رمز الحماية بالنسبة للبربر، رمز الأمان وطرد العين الشريرة، ولربما يرجع ذلك لكونه يحتمي من الخطر داخل المياه. يعدّ الحوت من الرموز المفضّلة في التزيين لدى البربر (في الفخار والحليّ...) لأنه يجلب الحظ ويطرد سوء الطالع. كما كان الحوت يُستعمل عند البربر للتنبؤ بالمستقبل خلال فترات التسلط الروماني. المنضوون تحت هذا الرمز شجعان، كما أنهم أوفياء، ملتزمون وشرفاء. بالإضافة إلى أنهم يخفون أحاسيسهم حياءً أو خوفاً من تنقيص الآخرين لهم أو انتقادهم، ذلك أنهم لا يتحملون الفشل.

خاتمة

مما أسلفنا يتضح أنه لا يمكن عزل مقاربة موضوع أصل البربر عن التموقعات الإيديولوجية والسياسية للأمازيغ أنفسهم وللمهتمين بالأمازيغيات عموماً. هناك اتجاهات متعددة عالجت، وما زالت، هذه الإشكالية دون التوصل إلى رأي علمي واحد وحيد يعتدّ به. أسالت الأقلام مداداً كثيراً حول هذا الموضوع، لكن لا يفتأ النقاش نفسه يعود إلى الواجهة.

رأينا أيضاً من خلال صفحات هذا الكتاب توالي عدة حضارات طبعت شمال أفريقيا بطابع التعدد الإثني والثقافي والديني، ما جعل الأمازيغ يتأثرون بكل الوافدين عليهم (مصريون، إغريق، فينيقيون، رومان، وندال، قوط.. وأفارقة سود)، لكن هذا لم ينسِهم تقاليدهم ومعتقداتهم ولغتهم التي ظلوا متمسكين بها إلى حد اليوم. كان الاحتكاك الأول للبربر الليبيين مع الجيران الفراعنة المصريين في مصر، ثم مع الإغريق في قورونيا الليبية. بعد ذلك جاء الفينيقيون مهاجرين من لبنان واستقروا بتونس بعد أن أسسوا عاصمةً لهم في قرطاج، ثم انتشروا بعد ذلك في مجموع أراضي المغرب الكبير بمحاذاة الشواطئ يروجون تجاراتهم ويقومون باستكشافاتهم. استمر التعايش بين الفينيقيين المسالمين والبربر المستضيفين إلى أن بدأ الصراع الروماني – القرطاجي. وخلال تلك الحروب، التي سمّيت بالحروب البونية، خاض الطرفان سلسلةً من المعارك البرية والبحرية حُسم بعضها وبقي الآخر دون نتائج حاسمة، لكن الغلبة في الأخير رجحت كفة الرومان، خصوصاً ما تعلق بالمعارك البرية. استقر الرومان بعد انتصارهم على الفينيقيين وهدمهم قرطاج في شمال أفريقيا مكونين مقاطعات استعمارية على طول الشريط الساحلي المتوسطي. بعد ذلك سيدخل بلاد البربر الوندال الجرمانيون ليحكموا بالحديد والنار مدة قاربت القرن من الزمن قبل أن يخلفهم البيزنطيون المسيحيون القادمون من الشرق.

لقد حاولنا لملمة المعلومات عن خاصيات شعب البربر مقتفين أخبار التاريخ وأحاديث الأسطورة. وكأي شعب، سعى الأمازيغ للبحث عن قوى غيبية عبدوها وتقربوا إليها. وارتباطاً بهذا الشأن لم يؤمن الأمازيغ بآلهة أمازيغية فقط، وإنما تأثروا بمعتقدات جيرانهم المصريين، كما تأثروا بالمعتقدات الفينيقية والإغريقية والرومانية، إلى جانب إيمانهم بالديانات السماوية المعروفة آنئذ (اليهودية والمسيحية). وقد شكّلت هذه الديانات والمعتقدات حجر الأساس لاجتماع وتجمع الكائن الأمازيغي بشمال أفريقيا، حيث انتشرت على الخصوص الوثنية والمجوسية واليهودية والمسيحية

قبل ظهور الإسلام. وقد عُرف عن الأمازيغ الأقدمين أنهم كانوا يقدّسون ملوكهم ويعتبرونهم القوة الحقيقية التي تعطي الجيوش حيويتها وانتصاراتها. وقد أدى الحال بالنسبة لبعض الملوك إلى أن كانوا يَرْقَوْنَ إلى مصاف الآلهة. ومن الملوك البربر العظام ذكرنا شيشنق وماسينيسا وجوبا الثاني وسفيروس وبوكوس الأول ويوغرتا وتينهينان وكسيلة ودهيا.

من الثابت والأكيد أن البربر بدخولهم في الإسلام وانخراطهم في التحوّلات الجديدة تبنّوا اللغة العربية بالكامل فيما يخصّ الكتابة، وهذا واضح تماماً منذ القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي). لكن، رغم إلغاء وحذف وتدمير وبتر جانب مهم من معالم الحضارة الأمازيغية، إلا أن ما يحضر بين أيدينا اليوم، على ندرته، يسعفنا للقول بأن الأمازيغ شهدوا فترات انتعشت فيها الثقافة، وإن كُتبت في الغالب بلغات المستوطن وظلت الأمازيغية لغة شفهية للتحاور. وقد نبغت في الكتابة باللاتينية أجيال متتابعة من الأمازيغ فأسهمت إسهاماً مهماً في إغناء الفكر الروماني منذ ما قبل النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد، أي قبل استعمار الرومان لشمال أفريقيا. وها هو الملك الأمازيغي جوبا الثاني يضرب المثل للمثقف الأمازيغي بإتقانه أربع لغات على الأقل: الأمازيغية، لغته الشفهية الأم ولغة الشعب الموري الذي كان يحكمه بشمال المغرب وغرب الجزائر، واللاتينية، لغة روما حيث تعلّم وأدرك أعلى درجات العلم، والبونيقية، لغة القرطاجيين التي درسها ليقرأ الكتب التي أهدته إياها روما بعد تخريب قرطاج خلال الحروب البونية، ثم اليونانية بحكم أنه كان يعيش رفقة زوجته كليوباترا سيليني، التي ترعرعت هي الأخرى في روما بعد أن انتهى حكم البطالمة بالإسكندرية إثر انتحار أمها كليوبترا زوجة الجنرال أنطونيو الروماني.

من خلال ما سردناه بين دفتي هذا الكتاب يظهر أن تاريخ الأمازيغ يستحق قراءة معمقة قد لا يتّسع كتاب واحد إلى حصر جميع جوانب موضوعاته. وها أنا حاولت، قدر المستطاع طبعاً، من خلال قراءة متأنية، أن أمنح هذا التاريخ المنسي حقه، ليس في إطار تغطية شاملة ولا حتى في إحاطة جزئية بحقائق تاريخية نسيها أصحابها أو حُرِموا منها، بل في إعادة الاعتبار لشعب ظل دائماً مغلّفاً بنوعٍ من اللغز. لقد حاولت كتابة تاريخ أمة مغاربية لفترة بعيدة كل البعد عن حاضرنا الآني، مما استدعى تجميع المعلومات اللازمة عن تلك الفترة، والإحاطة بما كان سائداً فيها من عادات وتقاليد وما حلّ بها من أحداث جسام وكوارث. الأمر لم يكن بالهين، إذ كان علي الإبحار عبر الزمن لملاقاة أناس تلك الحقبة والتعرف إلى سلوكهم وأمزجتهم وطبائعهم، بالإضافة إلى الأعمال الشائعة في حِرَفِهم واقتصادهم، وكذا وسائلهم في الحرب والسلم... وإن كان الموضوع يَمْتَحُ من أحداث الماضي الغابر الذي لا يمكن أن نتحقق من صدقيته مائة بالمائة، لكنه يأتي على

طبق ساخن في سنوات مسكونة بهاجس بحث الأقليات عن جذورها من خلال رمزية ذات قيمة كبيرة عند أصحابها من الأجيال المعاصرة. إن الوقوف على البدايات يكشف الدوافع والغايات، ويُمكِّننا أيضاً من استجلاء قوة الحدث الذي يُميز السابق المُحدِّد لما هو لاحق.

المصادر والمراجع

ـ العربية

- ابن تاويت محمد، "أقاليم الشمال الإفريقي من ديوقليسيانوس إلى الفتح الوندالي"، مجلة **دعوة الحق**، العدد ١١٤، ١٩٦٩.
- ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العجم والبربر ومن عاشرهم من ذوي السلطان الأكبر**، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢.
- ابن سلامة عبد الرحيم، "**قبائل المغرب**، تأليف عبد الوهاب بن منصور"، مجلة **دعوة الحق**، العدد ٢٠٤، ١٩٨٠.
- أعراب سعيد أحمد، "يليان الغماري ـ١ـ"، مجلة **دعوة الحق**، العدد ٤٠، ١٩٦١.
- أعراب سعيد أحمد، "يليان الغماري ـ٢ـ"، مجلة **دعوة الحق**، العدد المزدوج ٤١/٤٢، ١٩٦١.
- أهريشي محمد، "بحث في الأصول المشتركة للحضارة الأمازيغية والحضارة المصرية القديمة"، **تويزا**، كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢.
- أوشيخ أحمد، "مولاي محند... ومع ذلك فهو أمازيغي"، **تويزا**، حزيران/يونيو ٢٠٠٤.
- باش شاوش عز الدين، "قرطاج التي لم ندخلها أبداً، قرطاجنة... الواقع والأسطورة، **أخبار الأدب**، ٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢.
- البرغوثي عبد اللطيف محمد، **التاريخ الليبي القديم من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي**، منشورات الجامعة الليبية، الطبعة الأولى، ١٩٧١.
- بنعبدالله عبد العزيز، "من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي"، مجلة التاريخ العربي، آب ٢٠١١، منقول عن موقع

https://groups.google.com/forum/#!topic/fayad61/L1a56V2-WNc

- السائح حسن، قراءة "جديدة في تاريخ طنجة ـ١ـ"، مجلة **دعوة الحق**، العدد ٢١٧، ١٩٧١.
- سيد القمني، **الأسطورة والتراث**، المركز المصري لبحوث الحضارة، ط٣، القاهرة، ١٩٩٩.

• سيفاو رشيد نجيب، "المؤسسات التقليدية الأمازيغية: مقاربة سوسيوثقافية"، مجلة **تويزا**، العدد ١٢١، ٢٠٠٧.

• شارل أندري جوليان، **تاريخ أفريقيا الشمالية**، تعريب محمد مزالي وبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، الطبعة الثالثة، تونس، ١٩٧٨.

• شفيق محمد، **لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرناً من تاريخ الأمازيغن**، دار الكلام للنشر والتوزيع، المحمدية، المغرب، ١٩٨٩.

• شنوان الحسين، "واقع الحركة الأمازيغية من خلال الأسطورة"، **الحوار المتمدن**، ٢٠٠٦.

• الصديق محمود أبو حامد، **مظاهر الحضارة الفينيقية في طرابلس**، **ليبيا في التاريخ**، الجامعة الليبية، كلية الآداب، ١٩٦٨.

• عاشور محمد ربيع، "رحلة الأمازيغ في البحث عن أكوش"، موقع **تاوالت** (*Tawalt*).

• العرباوي محمد مختار: "أطروحات المدرسة التاريخية الاستعمارية حول شمال أفريقيا"، **المستقبل العربي**، س ١٨، العدد ١٩٥، أيار/مايو ١٩٩٥.

• العرباوي محمد مختار، **في مواجهة النزعة البربريّة وأخطارها الانقساميّة** (دراسة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥.

• الغربي محمد أحمد، "أول احتفال بعيد العرش في تاريخ المغرب سنة ٩٩٤ قبل الميلاد"، مجلة **دعوة الحق**، العدد ١٥٠، ١٩٧٣.

• غشيم علي فهمي (ترجمة عن الإنكليزية)، **تحولات الجحش الذهبي – لوكيوس أوليوس**، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، طرابلس، ١٩٨٠ (موقع **توالت**: *Tawalt*).

• القشاط محمد سعيد، **الطوارق عرب الصحراء الكبرى**، مركز الدراسات وأبحاث شؤون الصحراء، الطبعة الثانية، (اديتار) كاليري، إيطاليا، ١٩٨٩.

• الكعاك عثمان، **البربر**، سلسلة كتاب البعث، تونس، ١٩٥٦.

• "مايز نتيفاوت (Mays n Tifawt – Dades)"، موقع الأسطورة في التراث الأمازيغي، **تويزا**، كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤.

• المحجوبي عمار، **الحمار الذهبي**، **أبوليوس لوليوس**، دائرة المعارف التونسية، ١٩٩١ (موقع **توالت**: *Tawalt*).

• الناصري، **الاستقصاء**، ج١: ٨٢، دار الكتاب، البيضاء.

• هيمة حميد، "أصل سكان المغرب: سؤال علمي برهانات إيديولوجية"، موقع مجلة **أنفاس.**

• واعراب مصطفى، **المعتقدات السحرية في المغرب**، دار الحرف للنشر والتوزيع، منشورات جريدة **الأحداث** المغربية، ٢٠٠٧.

• والزيت الحسين، "الموروث الميتولوجي للمجتمع الأمازيغي: مبحث اجتماعي في المعتقدات والطقوس والفضاءات المقدسة في قبيلة ماست"، **تويزا**، تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٤.

• والنعايم لحسن، "يهود تنغير: الخصوصية والتعدد والتعايش"، **تويزا**.

• ؤمادي موحمد، "حكم تسمية الأمازيغيين بالبربر"، موقع **توالت**.

• يحيى عمر علي، **تاريخ المغرب الكبير**، مكتبة الأزهر، ١٩٦٤.

– الأجنبية

• Akkache, A., *Tacfarinas – Alger*, S.N.E D., 1968.

• Albertini, E., *L'Afrique Romaine*, 55 ff.; Dom Leclercq, *L'Afrique Chrétienne*, Paris 1904.

• Alice B. F. & Herbert S. K., "Publius Terentius Afer ("TERENCE")", in *Minute History of the Drama*, New York: Grosset & Dunlap, 1935.

• Amrouche J., " L'éternel Jugurtha: proposition sur le génie africain", reprinted in *Etudes Méditerraniéennes*, 11, 1963.

• Apolinaire, *Plaute et Térence,* Editions Gallimard, col. Bibliothèque de la Pléiade, Paris, 1971.

• Basset A., *The Berber Language*, London, 1952.

• Basset A., *Influences puniques chez les Berbères*, in RAfr., 1921

• Basset A., "Recherche sur la religion berbère", *Revue D'histoire des Missions*, Vol. LXL.

• Bates A. (Vol. 2, ed.), *Terence and his plays in the Drama: Its History, Literature and Influence on Civilization*, London: Historical Publishing

Company, 1906.

• Benabou M., ”Tacfarinas: Insurgé berbère contre Ia colonisation romaine“, in *Les Africains*, Paris, ed., *Jeune–Afrique*, 1977.

• Benabou M., ”Juba II ou l'Africanité vassale de Rome“, In *Les Africains*, Paris, ed., *Jeune–Afrique*, 1977.

• Benabou M., *La résistance africaine à la romanisation*, Paris, Maspéro, 1976.

• Benhakeia Hassan, *Térence et l’héritagen amazigh* (Université d’Oujda).

• Berthier A., *La Numidie, Rome et le Maghreb*, Paris, Picard, 1981.

• Bouchenaki M., ”Jugurtha: Un roi berbère et sa guerre contre Rome“, in *Les Africains*, Paris, ed., *Jeune–Afrique*, 1977.

• Bousquet G. H., *Les Berbères*, Paris, 1974.

• Brett M. & Fentress E., *The Berbers, Collection: The Peoples of Africa*, Blackwell Publishers, USA, 1996.

• Brunnel P. & Jouanny R., *Les grands écrivains du monde*, Paris, F. Nathan, 1976.

• Camps G., *Berbères aux marges de l’histoire*, Toulouse, 1980.

• Camps G., *Les Berbères, mémoire et identité*, Paris, Errances 1987.

• Desanges J., ”L’Afrique romaine et Libyco–berbère“, in Cl. Nicolet, *Rome et la conquête du monde méditerranéen*, Vol. 2, Paris, 1978.

• Diderot D., *Réflexions sur Térence*, 1762.

• *Encyclopédie Berbère*, Aix–en–Provence: EDISUD, 1987, Vol. IV.

• Grimal P., *Apulée, Métamorphoses*, IV, 28 – VI, 24, Collection Erasure, Paris, 1963.

• Lefebvre, ”Saint Augustin, 354 – 430: Une africanité en question“, in *Les Africains*, Paris, ed., *Jeune–Afrique*, 1978.

• Maalouf T., *Southwestern Baptist Theological Seminary*, Texas, USA, 2004.

• Mesnage P. S., *Étude sur l’influence du Christianisme sur les Berbères*, Paris 1902.

• Monceaux M., *Apulée*, Paris 1889.

• Rachet M., *Rome et les Berbères*, Latomus, revue d’études latines, Bruxelles, 1970.

• Roget R., *Le Maroc chez les auteurs anciens*, Paris, les Belles Lettres, 1924.

• Saint-Quentin L. De., *3000 ans avec les Berbères*, Paris, Delagrave, 1949.

• Salluste Ch., *Bellum Jugurthinum/Texte établi par Alfred Ernout*, Paris, les Belles Lettres, 1971.

• Saumagne Ch., *La Numidie et Rome, Massinissa et Jugurtha*, Paris, 1966.

• Sillius I., *La guerre punique, Tome 1, livres I–IV/Texte établi et traduit par Pierre Minoconi et Georges Devallet*, Paris, les Belles Lettres, 1979.

• Simon M. A., ”Le Judaïsme berbère dans l'Afrique ancienne“, in Rev. Hist. et Philos. Fac., P. Flamand, *Un Mellah en pays berbère: Demnate*, Paris, 1952.

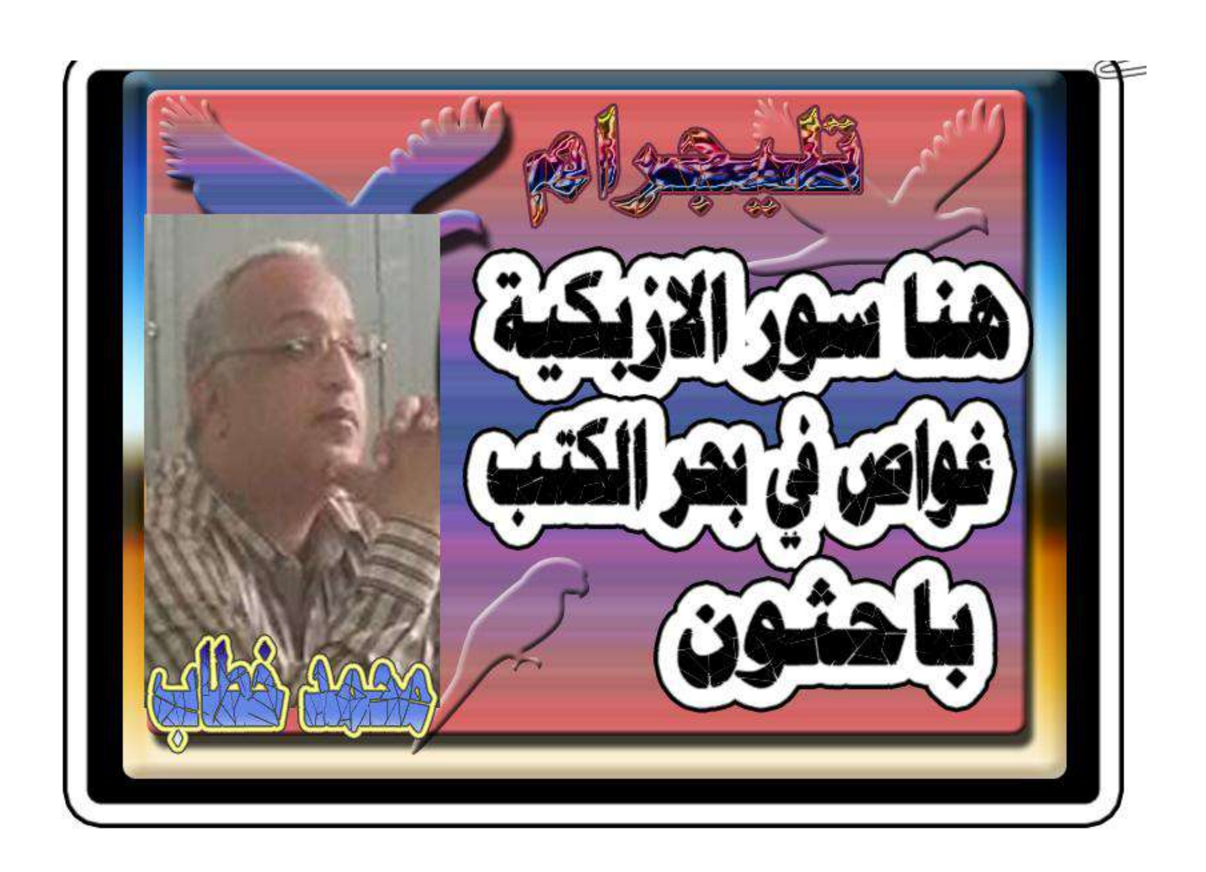
• Slouschz, *Hebraeo–Phéniciens et Judéo–Berbères*, Paris, 1909.

• *The Maghreb Review,* ”Kahina (The): Legendary Material in the Accounts of the Jewish Berber Queen“, vol. 7, 1982.

• Tlatli, S.–E., *La Carthage punique*, Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient, Maisonneuve, 1978.

• Waterbury J., *North for the Trade: The life and times of a Berber Merchant*, Berkeley and Los Angeles, California, 1972.

• ZafraniA H, "Culte Des Saints Et Pèlerinages Judéo–Musulmans Au Maroc", *Collection Judaïsme En Terre D'Islam, dirigée par Haim Zafrani/Volume 5*, Editions Maisonneuve et Larose, Paris, 1990



حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

ظلّ الأمازيغ شعباً غامضاً تكتنفه الألغاز والأسرار، وما زال إلى يومنا هذا يثير الكثير من الأسئلة والإشكاليات. فما سرّ هذا الشعب الذي يظلّ يفاجئنا مع كل اكتشاف جديد يرتبط بالتاريخ المغاربي القديم؟ هذا الكتاب سبر لأغوار المكنون في حياة هذا الشعب قديماً، وبحث في أصوله الإثنية والثقافية، عبر الغوص في تاريخهم وأساطيرهم، أديانهم وآلهتهم، أخبار الزعماء والأمراء، والملوك والملكات...

يزاوج المؤلّف بين التاريخ والحكاية والأسطورة مقتفياً كل ما كُتب عن الأمازيغ منذ القرون الأولى لتواجدهم في أرض المغرب الكبير.

قيل في الكتاب

عبد اللطيف هسوف كاتب وباحث مغربي. حائز دكتوراه في السياسات العمومية والإدارة من جامعة والدن في الولايات المتحدة الأميركية، ودكتوراه في اللسانيات التطبيقية والترجمة من جامعة السوربون في فرنسا.

نبذة عن المؤلف

عبد اللطيف هسوف كاتب وباحث مغربي. حائز دكتوراه في السياسات العمومية والإدارة من جامعة والدن في الولايات المتحدة الأميركية، ودكتوراه في اللسانيات التطبيقية والترجمة من جامعة السوربون في فرنسا.